" البشر هم أكثر المخلوقات وحدة على وجه الأرض "

روميو وجولييت في البلقان

ديان ترايكوسكي

ترجمة: رانيا صبري علي



روايات مترجمة



روميو وجولييت في البلقان

ديان ترايكوسكي

ترجمة :رانيا صبري علي

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة :

الراوي



كان القمر ساكنًا تلك الليلة. نوره كرذاذ الشلال اللطيف الذي يداعب بطن المرأة الحامل الغارقة بالعرق وهي تُخرج بذرة من رحمها. هنا ولد «صاني». هزَّ صوته الأرجاء، وأدركت عيناه ضوء الشمس، وشعر جسده فورًا أنه في حضن إنسان آخر. «صاني»، الطفل الذي سُمِّي كناية عن الشمس، بدأ الدورة الأبدية للفراق واللقاء.

في تلك الليلة، نطقت الأقدار التي لا مفر منها:

- عسى أن يبلغ هذا الطفل من الرقة والصلابة مبلغ القديسين.

وقال آخر:

- ليصاحبه الهدوء والاضطراب مدى الحياة. وليصاحبهما كما لو كانا إخوته.

قال الثالث:

- سيكتشف جميع ألوان الطيف، ويجمعها، وتصبح له القدرة على رؤية حتى دمعة ملكة النحل الدقيقة؛

ليبحث أبعد وأعمق في ظلال الأحلام والأمطار القذرة.

وهكذا حدث ذلك. في الصيف كان يزوره الثلج، وفي الشتاء زارته شدة الحرارة، مثل كل المسافرين.

***

مرَّ «صاني» بالعديد من الجولات في حياته. الأولى والأهم عنده بدأت عندما استشعرت عيناه الصغيرتان نوعًا مختلفًا من النظرة، ولمست قربًا دافئًا بوجود «لونا»، الفتاة التي سميت كناية عن القمر. بدأت جولة أخرى عندما صعد على ظهر سفينة.

صاني



قبَّلتُ المرساة في قاع البحر قبلة الوداع، وأبحرنا. لا أعرف كيف تمكنَّا جميعًا من الصعود على متن السفينة. بطريقة أو بأخرى، كنا متكدسين فوق بعضنا بعضًا في الأسفل، في الظلام، كما لو كنا كومة من الحطب المقطع حديثًا، محمَّلة على حمار، مربوطة بإحكام، كي لا تسبب أي مشكلات.

في تلك الليلة، تمكنَّا بطريقة ما من الاستلقاء. ولكنني لم أنم ولم أحلم. استلقيت هناك. وعلى نغمات الشخير الخافتة، راودتني رؤى من بداية رحيلي عن مقدونيا إلى أمريكا.

لم أفهم تلك الرؤى الأولى التي تشبه الحلم في بطن وحش بحر عملاق. كل ما أعرفه هو أن السفينة تحولت إلى شيء آخر، شيء ما ضخم، غير ملموس. مثل حذاء والدي - دائمًا ما يكون كبيرًا على قدمه - الذي كان يحمله في كثير من الأحيان إلى المنزل في وقت متأخر. يجلس الموقد في انتظاره ليضع فيه الحطب، والبيت بارد كالقبر. أو كبندقيته المخصصة

للصيد، تلك التي اِهتمَّ بها أكثر من أمي التي كانت تستيقظ في انتظار عودته إلى المنزل، وهي تمسِّد على رؤوسنا برفق في أثناء نومنا.

أيقظتني يدها أغلب الوقت، ولكن عندما كبرت قليلًا، في سن الثامنة أو التاسعة تقريبًا، لم أعد أدفع يدها بعيدًا. بدلًا من ذلك، تركتها تمسِّد على رأسي، لأننا جميعًا في حاجة إلى أن نشعر بشيء بشري، نشعر بأننا بشر؛ وكانت أمي بشرية، بشرية جدًّا.

في كل ليلة في أثناء سفري على متن السفينة، كنت أُوقظ «لونا» في قلبي، تلك الفتاة ذات العيون الحيوية، والاسم المميز، يدها مليئة بآثار وخز الإبر، ومسودة بسبب الطين، طين لا يمكن غسله أو كشطه. يبقى دليلًا على فقر كل من يعيشون حيث أتيت.

رأيتها أول مرة عندما انتقلت عائلتها إلى بلدتنا من قريتهم، كانت ترتدي ثوبًا يصل إلى الأرض وحرفه متسخ وصندلين مختلفين. كانت تحدق إلى يدي والتي كانت تحمل قطعة من الخبز عليها بعض دهن الخنزير ورشَّة من الفلفل الأحمر المطحون من صنع يدي جدتي الحنونة والصبورة، التي تستطيع التفريق بين الفلفل الحلو والمر وتنظيفه جيدًا حتى من أدق حبَّات التراب، كالساحرة.

سألتْ:

- أأستطيع الحصول على قضمة؟

لا أعرف إذا كانت تبتسم أم لا.

أعطيتها قطعة الخبز، التي قضمتها وكأنها أخذت

عينة من المعجنات التي وقفت أمامها قبل سنوات وحدَّقت إليها عبر نوافذ المتاجر في «نيويورك»، فكرت مرتين قبل شراء واحدة، واحدة بالشوكولاتة والكريمة المخفوقة والكرز؛ الكرز الأحمر في الأعلى، مثل تلك التي كنا نسرقها من ساحة جيراننا في طفولتنا.

أكلت «لونا» الخبز وهي تنظر إليَّ في صمت، حتى احمرَّ خداي من الخجل.

سألتْ:

- أتعرف ما هو اسمي؟

قلت بصوتٍ حادٍّ لم أسمعه من قبل:

- لا.

- «لونا». اسم غير عادي. ما هو اسمك؟

قلت:

- «صاني».

- اسمك غريب أيضًا. ووجهك أحمر. هل أنت مريض؟

- لا.

أجبت بسرعة، كما لو كنت خائفًا، ونظرت لأعرف أكان وجهي أحمر أم لا.

- لنلقي نظرة، تضع أمي يدها على جبهتي لمعرفة أكانت حرارتي مرتفعة.

ضغطت بيدها على جبهتي، وأبقتها بعض الوقت.

نظرت إلى عينيها وشعرت بالخوف. لا أعرف ما الذي جعلني أشعر بالخوف، ونظرت إلى أعلى كي لا

أرى وجهها.

قالت:

- حرارتك مرتفعة. هل يمكنني الحصول على قضمة أخرى؟

وقبل أن أتمكن من الرد، أخذت نصف قطعة الخبز، وأعطتني النصف الآخر وذهبت إلى المنزل...

هكذا، وبعد تبادل بضع كلمات معها، أصبحت «لونا» الفتاة التي جعلت حلقي يجف أول مرة، خدَّرته، كأنني أكلت نبتة مخدِّرة. وليس فقط بسبب صورتها التي علقت في مخيلتي يومها، طفلة تحمل قطعة من الخبز في يدها.

في اليوم التالي، طلبت من جدتي صنع المزيد من ذلك الخبز. شمَّرت أكمامها كما تبقيها طوال فصل الشتاء والصيف، لأنه كما تقول: «الشيخوخة إما تصيبك بالبرد أو بالحر طوال الوقت، على حسب الشخص».

علقتُ آمالي ورغبتي في لقاء آخر على الحطب الذي ركضت لإحضاره. تجعلني «لونا» مرتبكًا وخائفًا، لم أملك اسمًا لهذا الشعور في ذلك الوقت.

لم أرَ «لونا» مدة ثلاثة أيام بعد ذلك. رميتُ ثلاث قطع من الخبز أمام بابها، الذي يبعد قليلًا عن بيتنا. حتى اليوم الرابع، رأيتها. كنا نلعب بـ»البلي»، وتوقفت هي لتشاهد. لم أنظر إليها بدافع الخوف. بعد فترة قصيرة، غادرت. في تلك الليلة، نمت في حضن جدتي. تؤسفني عدم القدرة على تذكر ما دار في رأسي في ذلك الوقت، لكنني أعلم أنني لم أسعد

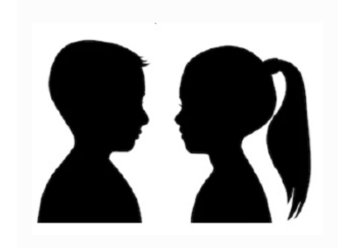
هكذا من قبل، حتى عندما أخذني أبي للصيد أول مرة - أول مرة والوحيدة في طفولتي - أنا وجاري «كول». كنَّا نعوي مثل كلاب الصيد في جميع أنحاء الجبل لإخافة الحيوانات البرية، لنجبر الخنازير البرية على الإفصاح عن مكانها كي نصطادها ببنادقنا. كانت هذه هي أول مرة شعرت فيها بالقرب من والدي، شعور بالقرب غادرني كلما شعر أبي برغبة في الذهاب إلى الحانة.

الراوي



البشر هم أكثر المخلوقات وحدة على وجه الأرض. عندما يولدون، أول من يزورهم هو الشعور بالوحدة؛ عند قطع الحبل السرِّي، مثل مرض حقير. بعد ذلك يأتي الألم، وهو أول بكاء للرضيع. بعد ذلك يمكنه تعرف الفرح، وهو ابن عم الراحة. وهكذا يعيش بينهما في صراع دائم غير متكافئ.

صاني



أستطيع أن أفكِّر في «لونا» بقدر المسافة بين السماء والأرض، وأطول من أطول نهر أو قناة ركضت بمحاذاتها. تاريخنا معًا لم يغادر ذاكرتي قط، يظل يراودني بين الحين والآخر مثل شريط فيلم، كالذي رأيته عندما سافرت للخارج، مثل مئات من شرائط فيلم سينمائي أو آلاف منها كلها لتكوين فيلم قصير جدًّا، مقارنة بالمجهود الذي يُبذل في الإنتاج. هذه الفكرة العابرة الضرورية تعيدني إلى الخريف الذي تلا صيف الخبز، ذلك الوقت الظالم لسكان مقدونيا في بداية العقد الثاني من القرن العشرين، وهذا ما جعلني أترك منزلي لاحقًا لكي «أحصل على شيء»، كما قال أصدقائي أو «لأخسر كل شيء، حتى أحصل على شيء ما»، كما قلت أنا في البداية. وليكن ما يكون، كل الأوقات غير عادلة، والوقت الذي نعيش فيه دائمًا يكون الأكثر ظلمًا.

حتى فترة قصيرة، ارتدنا المدرسة ذاتها، حيث تعلمنا أن اثنين واثنين يساويان أربعة، على الرغم

من أنني لاحقًا اكتشفت أن هذا بالنسبة إلى الفقراء فقط. جميعنا درسنا معًا، متكدسين جنبًا إلى جنب مثل أكوام القش. عادة ما كان المدرس يضربني على يدي لأن «عقلي سارح مع الطيور في الخارج» كما كان يقول. لم أرَ مشكلة في أن عقلي يتجول في الخارج، ليس فقط مع الطيور بل مع الأشجار التي تتسابق على من يكون أكثر خضرة، أو مع كلاب الحي، التي أعدُّ نباحها، وأتأمل ما الذي تقوله.

يقول الجرو لوالده:

- هاو هاو.. أنا جائع.

يجيب والده:

- هاو هاو! أخبر والدتك.

يرد الجرو برفق:

- هاو هاو هاو.. أمي أمي أنا جائع!

أعتقد أن الأم لعقت الجرو بحنان وأعطته شيئًا ليأكله. هكذا تخيلت المحادثات بين الكلاب والذئاب ليلًا، في الشتاء القارس، عندما تخطط للانقضاض على قن الدجاج الدافئ، لأكل الدجاج المشاغب كما كنا نسمع من أهلنا لنتأدب. الكائنات الحية الأخرى لا تتحدث، لا الطيور ولا الدجاج ولا القطط، لا أعرف السبب.

لم تكن «لونا» أجمل فتاة في شارعنا فقط، بل كانت أجمل فتاة في المدرسة. أحبها الجميع، ولكنني لم أستطع تحمُّل ذلك. بدأت تتسكع مع تلك الفتاة، «فيما». فتاة هادئة، تسكن بعيدًا بعض الشيء

عن منزلنا.

كنت أرى «فيما» تمر أمام منزلي، قبل بداية الدراسة. عندها لم أكن أعرف اسمها، لم تكن جميلة ولكنها ليست قبيحة أيضًا. بدت غريبة نوعًا ما. ملامحها الحادة قد تكون مخيفة بعض الشيء. بعد المدرسة كنت أتمشى إلى البيت مع «فيما»، و»لونا»، و»فلادو»، و»داميان»، وكيرو»، و»ستويانش». في إحدى المرات، نبح كلب وقالت «فيما»:

- يريد الذهاب في نزهة.

تجمَّد الدم في عروقي. تلعب «فيما» لعبة ترجمة نباح الكلاب!! مثلي تمامًا!! كرهتها في تلك اللحظة، لأنها هي من تلعب هذه اللعبة، لعبتي المفضلة، وليست «لونا»!

صرت أجيبها بفظاظة كلما سألتني عن شيء ما، تمامًا كما كنت أرد على أخي عندما يأخذ الكعكة الأخيرة ويضعها في فمه، ويقول لي: «إذا أخبرت أحدًا، سأشدُّ أذنك كما تُسحب أذن الحمار».

ويضحك بعدها، ويخرج فتات الكعك - المصنوع من الدقيق والسمن ورشة من السكر - من فمه على وجهي.

تتحدث «لونا» دائمًا مع «فيما»، ولم يكن لديها وقت لتتحدث معي أو تسألني عن أي شيء. انتظرتها. انتظرت سؤالها عن أي شيء مهم أعرف إجابته. شيء أستطيع الإجابة عنه أفضل من أي شخص في المدرسة، فقط لترى أنني الأفضل، أفضل من الآخرين في كل شيء. وبعد ذلك سترغب

في التحدث معي أنا فقط، لأنني أعرف أشياء لا أحد يعرفها!

كانت هذه مشكلتي في ذلك الوقت، وكنت أراها أكبر من الكون كله. على الرغم من أن الكبار كانوا مصرِّين على «أننا نحن الأطفال ليس لدينا أي شيء لنقلق بسببه وأننا بخير». لا أقول إنني لم أكن بخير، كنت بخير ولست بخير في الوقت ذاته، لأن «لونا» كانت بالكاد تلاحظني. حتى عندما كانت تتكلم معي، كانت تسألني إذا ما كنت أريد المشي إلى المنزل معهم.

تقول:

- هيا «صاني»، ما الذي تنتظره؟

وأركض خلفهم كالولد الأحمق، مع أنني في الحقيقة كنت ذلك الولد الأحمق بالفعل.

في أحد الأيام، مرضت «لونا»، ولم تأتِ إلى المدرسة مدة شهر تقريبًا. كل أولاد الحي ذهبوا لرؤيتها، ومن استطاع منهم أحضر لها شيئًا تأكله. أحضر «فلادو» قطعة من الخبز وبرطمانًا من

مربى التين الأخضر وآخر من مربى التين الأسود. كانت عائلته ميسورة الحال، ما يفسِّر وزنه الزائد. وُضعت المربيات في برطمانات صغيرة، طلب منها «فلادو» أن تعيد البرطمانات بعد انتهاء المربيات، بعد غسلها جيدًا، لأن والدته طلبت منه ذلك. ترددت الخالة «ستويانكا» - والدة «لونا» - قليلًا، كأنها تقرر هل ستقبل الهدية أم لا وقالت:

- حسنًا، سنغسلها جيدًا! حاشا للرب أن نعيدها دون

أن نغسلها.

أحضر لها «كيرو» مربى العنب منزوع البذر، تمامًا كما أحبها، وهذا ما جعلني أشتهيها عندما رأيتها. لم أستطع التركيز مع الآخرين وما أحضروه، لأن «لونا» تحدثت معي، معي أنا شخصيًّا! نظرت إليَّ مباشرة، وتجمَّدتُ في مكاني، سأريها مَن أنا، وستعرف أنني شخص مميز! تحوَّلت نظرتي إلى فمها، لأترقَّب أي كلمات عذبة ستخرج من هذا الفم. دامت هذه اللحظة مدة أطول من طفولتي بأكملها، ترقَّبت في خوف. كنت واقعًا في حبها وخائفًا لدرجة أنني حتى يومنا هذا لا أعرف كيف نجا قلبي الصغير من شعور كهذا، وقالت أخيرًا:

- «صاني»، لماذا أنت مُحْمَّر هكذا؟ ولماذا لم تأتِ «فيما»؟

تداعى عالمي بالكامل، كما حدث من قبل. انهرت، كما تفعل جدتي في بعض الأحيان، تذرف دمعة أو اثنتين بلا سبب، ودون مقدمات، تتساقط الدموع بسلاسة على خدها، كأنه خد امرأة شابَّة.

- لست محمرًّا! و»فيما» ...

اختنق صوتي فجأة، بسبب شعوري في ذلك الوقت. يمنعني ذلك من أصبح أهم ولد في عالمها الخاص، من أن أكون بطل شارعنا الذي يريد الجميع اللعب معه.

- ... لا أعرف لِمَ لَمْ تأتِ «فيما»، ولكن ... أنا ... أنا ... جئت.

تلعثمتُ، واستقرت نظرتي على الأرض، كأن

احمرار وجهي ذاب وتحوَّل إلى قطرات تنزلق من على ورقة شجرة مغرورقة بالمطر. لم يكن هذا ما توقعته، توقعت أن تسألني سؤالًا لم تسأله أحدًا من قبل، وسأجيبها بإجابة مهمة، مهمة جدًّا لدرجة أن الجميع سيعاملونني معاملة المشاهير تمامًا كما أرى «بير» الهمجي الصغير. ولكنني الآن واقف ووجهي محمر، وأشعر كأن طفولتي تتلاشى، ومستقبلي وكل أحلامي، ومعها حلمي بأن أُثبت لأبي أنني لست مجرد فتى يتدلى المخاط من أنفه، كما كان يناديني دائمًا.

جلسنا قليلًا في بيت «لونا». طلب منا والداها أن نخبرهما بما تعلمناه في المدرسة. أخبرهما «فلادو» كيف غفا المعلم في الفصل، وكيف ضحك الجميع وقتها:

- رميتُ أنا و«داميان» بذرة خوخ عليه واستيقظ، ولكنه لم يرنا.

ضحك «فلادو» وهو يحكي القصة وضحك الجميع و«لونا» بعد انتهائه من القصة. كرهتُ «فلادو» لأنهم يضحكون معه، ولا يضحكون معي!

بعد ذلك قال «داميان» إن والديه حضَّرا مربى الزهور البرية ومربى الخوخ الأسود ومربى السفرجل ومربى الكرز، وأحضر لها أيضًا بعض الكرز من شجرتهم الخاصة التي كنا نسرق منها سرًّا. كانت جدته تطاردنا لتبعدنا عنها وتصرخ:

- عسى أن يصعقكم البرق لسرقتكم هذه أيتها الخنازير الصغيرة، إذا أمسكت بأحدكم سألقِّنه درسًا.

بعدها طلب منا «داميان» ألا نسرق الكرز لأن ذلك يقلل حصته من المربى، وقال لـ«لونا»:

- يمكنكِ سرقة ما تشائين من الكرز لأنكِ مريضة.

وضحك الجميع، ما عدا أنا. وكأن ما حدث لم يكن كافيًا بالفعل، سألتني «لونا» سؤالًا آخر:

- «صاني» لماذا لا تضحك؟

وقضت عليَّ تمامًا، لم أجد ردًّا مناسبًا في عقلي اليافع، ولا كلمة، ظلَّ فمي مغلقًا. مر الوقت، وصمت الجميع وأصبحت كل العيون عليَّ، حتى قال «فلادو»:

- أكل القط لسانه.

ضحك الجميع مرة أخرى. شعرت كأنني أرى نفسي من أعلى، وأنني أتقلص شيئًا فشيئًا، حتى أصبحت في حجم نملة.

قالت العمة «ستويانكا»:

- يمكننا اصطحابك إلى المنزل إذا كنت متعبًا.

قلت إنني بخير ووقفت وغادرت. لم توصلني العمة «ستويانكا» حتى الباب. أعتقد أن تفكيرها كان مشغولًا بالمربيات. ومن المرجَّح أنها تنتظر مغادرة الجميع حتى تأكلها.

في تلك الظهيرة، استلقيتُ ووضعتُ رأسي في حضن جدتي وهي تحيك. مسَّدت رأسي برفق وقالت لي إن لديها عملًا تقوم به وعليها الذهاب. أخبرتها أنني أردت أن أبقى هكذا فترة أطول؛ رأسي في حضنها، ولكنها قالت لي ألا أتضايق لأن عملها

لن ينتظرها. غادرت الغرفة ومعها - كما يبدو - كل الأمل. عندما يتحطم قلب الطفل بسبب الحب كما حدث في ذلك اليوم، تبدو كل المشكلات أكبر من حجمها الطبيعي، حتى أكبر من إجبار بالغَين واقعين في الحب على الفراق.

لم أشعر بتحسُّن عندما ظهرت عند الباب وقالت إنها ستعود بعد قليل.

ولكي يكتمل اليوم، كانت أمي تمسِّد على شعر أخي، الذي كان - مثل «لونا» - مريضًا هو الآخر. لم يكن أبي في المنزل. استلقيت وأنا متكوِّر على نفسي في انتظار جدتي لكي أستلقي بجانبها، ورأسي في حضنها كنوع من العزاء عن كل آلام الطفولة، التي ستبدو فيما بعد سخيفة وساذجة.

في تلك الليلة، لم أحصل حتى على حضنها ليريحني، لم تعد جدتي حتى وقت لاحق. لم أكن حزينًا هكذا من قبل.

في اليوم التالي، أرادت «فيما» أن تعرف إذا ما سألتْ «لونا» عنها، وقلت:

- لمَ لا تسألينها بنفسك؟

قالت:

- لم يسمح لي أبي بالذهاب، خشي عليَّ من العدوى، هل انتقلت إليك العدوى؟

قلت:

- لا.

ولكن في تلك اللحظة، تمنيت لو أنني مرضت، لكي

أستلقي مثل «لونا» وتأتي هي لزيارتي، وستخبرني بما حدث في المدرسة، وأسألها عن شيء ما، سأسألها أنا بدلًا من انتظار سؤالها. هذا ما جال في خاطري وكنت أسعد مما كنت عليه الليلة الماضية. في خلال الأسبوعين التاليين، مشيت مع «فيما» وحدنا من المدرسة إلى البيت، معًا.

في اليوم التالي، لا أعلم من أين جاءت شجاعتي المفاجئة، ولكنني سألتها بشجاعة:

- ما الذي يقوله ذلك الكلب؟

قالت مبتسمة:

- إنه ينادي على ابنه يقول: «وقت العودة، موعد العشاء». ما الذي يقوله الجرو الآن؟

قلت:

- يقول: «مستحيل! إننا في وسط لعبة، ضع بعض المربى على قطعة خبز وأحضرها إليَّ هنا في الشارع».

وانفجرنا ضحكًا.

ضحكت أنا و»فيما» كل يوم في طريق عودتنا، وبين الحصص الدراسية. لقد أصبحنا مقربين كثيرًا لدرجة أن الأولاد قالوا إنني مخنَّث، وأخبرت أمي على الفور وأخبرتها ألا تخبر أبي. أخبرتها لكي تخبر الأمهات الأخريات أن يطلبوا من أولادهنَّ ألا يقولوا هذا مجددًا.

فجأة عادت «لونا»، وكأن عصا سحرية قد تحرَّكت وأعادت كل شيء كما كان قبل مرضها.

سألتني «فيما» في طريق عودتنا إلى المنزل:

- ما الذي يقوله الكلب يا «صاني»؟

نظرت إليها بعتاب، بعينين غاضبتين، مثلما فعل العم «مومو» عندما جاء إلى منزلنا وطلب من أبي أن يُحضر له ذلك الشيء الدوار الخشبي لكي يعلِّم أحدهم كيف يُصنع الخبز. فكَّرت في سعادة أن أبي سيحضر معه بعض قطع الخبز الساخن تلك الليلة وأنه سيعطيني قطعة من المنتصف، حيث الجزء الأبيض الطري الذي كانت جدتي أحيانًا تعطيه لنا عندما تُخرج الخبز من الفرن، والبخار ما زال يتصاعد منه، وتغرز أسنانها فيه وتقول:

- أوه أوه. خبز أثمن من الروح.

نظرت إلى «فيما» بعينين غاضبتين، وقلت لها:

- إنه يقول «اهتمي بشئونك الخاصة».

هذا ما قلته لها - تمامًا كما كان يقول أبي لأمي - واستمر الوضع هكذا فترة طويلة حتى بدأت أرى «لونا» أقل وأقل؛ توقَّف والداها عن إرسالها إلى المدرسة لكي تساعدهما في المنزل.

- في المنزل ستتعلم كيفية أداء المهام، ما الذي ستتعلمه في المدرسة؟ هل ستقابل زوجها بدفتر عندما يعود إلى المنزل في نهاية اليوم؟ سيطلب منها بعض الطعام وليس الكتب!

هذا ما قاله والدها، ولكلامه قوة لا يمكن لأحد الوقوف ضدها. بعد ذلك، أردت أنا التوقُّف عن الذهاب إلى المدرسة، وتوقفت الكلاب عن الحديث.

***

الراوي



بعد عدة سنوات، أتى جفاف. كان صيفًا لم يأتِ مثله من قبل، لدرجة أن النمل نسي ماهية قطرات الندى. لا وجود لقطرة رطبة متدلية من أطراف العشب، لكي تروي عطش النمل. حطَّم ذلك الجفاف التعيس كل شيء، حتى إن الأشجار حزِنت، واعوجَّت، وانحنت ولامست قممها الأرض، مثل الأيتام. في ذلك الوقت قال الناس:

- حتى السماء تكرهنا، إنها ترفض التبوُّل لتعطينا بعض الماء، أو بضع قطرات ثمينة.

آخرون قالوا:

- الإله مرتعب من شرور الجميع، لهذا السبب لا يريد إرسال الأمطار الآن. لاحقًا سيرسل لنا فيضانًا، فيضانًا هائلًا لكي يطهر الشرور من هذه الأرض.

وقال شخص آخر:

- لقد عشت الشدَّة والرخاء كليهما، أنا ابن أم

عجوز، ولكنني لم أرَ شيئًا مثل هذا من قبل، بالتأكيد هو شيء فعلناه لكيلا تُنزَّل علينا الرحمة هكذا، كأننا وحدنا من أخطأنا في العالم أجمع.

ذلك الصيف، تمامًا كما اتفقت الأقدار، ولم تختلف أبدًا، عاصر «صاني» فصول السنة الأربعة في آن واحد.

***

صاني



كان ذلك الصيف الذي أدركت فيه رجولتي، و»لونا» أنوثتها، ولكن في ذلك الوقت والمكان، لم يتجرأ شخص على فعل أي من المحرمات، ولا حتى في خياله، على الرغم من حقيقة أن الجميع قد ارتكبوا كل ما قد يخطر في بالك في وقت ما، بالطريقة التي يرتكبها بها الجميع حول العالم، سواء كانت خطأً أم صوابًا أو اهتم أحد لأمرها أم لا.

في ذلك الوقت، كانت الغابة الشاهد الوحيد على رغبتي، والتي كانت - في عقلي - تأخذني إلى كل أماكن المتعة الممكنة. أخلع ملابس «لونا» وأتركها كما ولدتها أمها كما يقول المثل. المهم، تكون عارية تمامًا لدرجة أنني أشم رائحتها، على الرغم من أنني أعرفها منذ فترة قصيرة. أردت أن أحضر لها باقة من الزهور، أو كل الزهور التي في العالم وأغرقها بباقات الزهور، أن أزينها بكل الألوان والأشكال الممكنة. تركت صورتها تستريح في مخيلتي فترة أطول، وبعد أن أخرجت كل «عصارات» رجولتي

المتورمة وانقضت شهوتي، فكَّرت فيما إذا كانت تبادلني الشعور والرغبة ذاتها.

ازدادت زياراتي للغابة، كانت جدتي مسرورة بإحضاري مختلف أنواع الأعشاب، لتعدَّ بها الشاي والأدوية التي كانت تؤدي مفعولها في بعض الأحيان وتصيبنا بالغثيان أحيانًا أخرى.

دائمًا ما كانت تقول إن النباتات التي أحضرها هي نفسها التي تحتاج إليها:

- أوه يا طفلي العزيز، «الجيرانيوم» و»الأدونيس الربيعي»، تمامًا ما أحتاج إليه. وأحضرت معهما «الشقار الإكليلي» ونبات القطيفة، والحلبة، يا حبيب جدتك الصغير.

كانت دائمًا ما تردد ذلك بعد تسميتها نبتة نبتة؛ البنفسج، الزهور، القرنفل، الريحان، السوسن، «الخزامى»، نبتة القطيفة، «الحنوة»، «الحوذان»، «التانسي»، الأعشاب، «السراخس»، المسك، «البريوني»، عشبة الليمون، الهندباء، البابونج، «العرن المثقوب»، «القيصوم»، الفراولة، «سهم الكيوبيد»، «الشبرق»، «شيح ابن سينا».

وبعد ذلك تلقي بها في القمامة سرًّا..

عندها نسيت كل مخاوفي الطفولية - أشك في صحة هذه المعلومة - تلك المخاوف التي كانت تهاجمني في سن العاشرة أو الحادية عشر؛ تلك الأوقات التي ادَّعيت فيها أنني نائم لكي أستمع لوالديَّ وهما يتحدثان عن أشياء لا يجب على الصغار سماعها. في رحلتي إلى عالم البالغين، عرفت

أن العم «بيتسي» والد «لونا» كان يضرب العمة «ستويانكا» كل يوم، وقررت أنها تقريبًا لا تستطيع تحمُّل ذلك بعد الآن وأنها ستعود إلى بيت أمها في القرية. عندها قال لها العم «بيتسي»:

- ستعودين إلى بيت أمكِ لكي تشتميني، أيتها العاهرة اللعينة، اسمعيني! إذا خطوتِ خطوة خارج ذلك الباب اللعين، لن يستطيع أحد ولا حتى القديس «بيتر» إرجاعكِ، أيتها العاهرة اللعينة! وستعرفين كيفية البكاء من دون تعنيف!

هذا ما قالته جدتي وهي تضحك، وكنت مسرورًا أن والدي لم يعنِّف والدتي ولكنني شعرت بالخوف من أن تعود العمة «ستويانكا» إلى قرية والدتها وتأخذ «لونا» معها.

بعد ذلك، ضممت يديَّ تلك الليلة وأغمضت عينيَّ بشدَّة، وكررتها كصلاة حتى نمت: «رجاءً لا تسمح لـ»لونا» بالمغادرة، رجاءً لا تسمح لـ»لونا» بالمغادرة، رجاءً لا تسمح لـ»لونا» بالمغادرة».

سمعت مصادفة أن أحدهم وقَّع اتفاقية ما في إحدى المدن البعيدة، قال أبي إن اسمها «بوخاريست». لم أفهم معنى ذلك، ولكنه قال:

- الأمر متوتر لدرجة أنه لا تستطيع حتى معرفة أي طرف سيعطيك السلاح لتحارب، اللعنة عليهم، سواء كانوا الصرب أم البلغاريين، جميعهم في انتظار اللحظة المناسبة لضربنا. الآن اسمعي يا امرأة، إذا أخذوني لأصبح جنديًّا، عودي إلى قرية أهلك، وغطِّي القبو لتخفيه عن الأنظار، واختبئي فيه مع

الأطفال وإذا سمعتِ صوت أحد يقترب...

عندها صلَّيت ألا نذهب إلى القرية، وكررت لنفسي مرة أخرى: «رجاءً لا تجبرنا على الذهاب إلى القرية، رجاءً لا تجبرنا على الذهاب إلى القرية، رجاءً لا تجبرنا على الذهاب إلى القرية...». لم أقل أي شيء عن أخذهم لأبي بعيدًا ولم أسمح لنفسي حتى بالتفكير في احتمالية حدوث هذا. على الرغم من أنني بداخلي كنت أدعو أن يأخذوه، ولكن فورًا بعد ذلك أقول لنفسي مرتين أو ثلاثًا: «رجاءً لا تسمح لهم بأخذه، رجاءً لا تسمح لهم بأخذه»، خوفًا من أن يقرأ أحد أفكاري.

سمعت جدتي مرَّة تقول لأمي:

- صغيرتي، لقد وُلِدتِ لتجابهي الصعوبات، مثل كل النساء، ولكن عليكِ الاهتمام بزوجكِ وهو في المنزل، لأنه على الرغم من كل شيء، الوحدة أسوأ من أن تقضي حياتكِ مع شخص يصرخ فيك يوميًّا.

لم أفهم ذلك. سأعود إلى ما كنت أقوله. لكيلا أخرج عن السياق كثيرًا، في ليلة ما، بعد تكراري لـ»رجاءً لا تسمح لنا بالذهاب إلى القرية» و»رجاءً لا تسمح لـ»لونا» بالمغادرة»، نمت حتى أيقظني صوت غريب. فتحت عينيَّ ووجدت أمي جالسة فوق أبي، تقفز إلى أعلى وأسفل، بلا حذاء، وتتأوه عدة مرَّات، كما أتأوه تمامًا عندما تكون حرارتي مرتفعة. أغمضت عينيَّ فورًا وسمعت أبي يقول:

- بهدوء، ستوقظين الأطفال.

وتنهدت أمي كأن شيئًا تحطم بداخلها. ظل ذلك

الصوت في أذني فترة طويلة، في أذني وفي روحي الهشة التي لم تكن مستعدة لمثل هذا المنظر. في اليوم التالي، أقسمت ألا أكبر أبدًا، وكنت أدفع يد أمي بعيدًا كلما حاولت لمسي، وكانت تقول بسعادة غامرة:

- يا إلهي، لقد كبر ابني لدرجة أنه لا يسمح لأحد بلمسه.

بالإضافة إلى أنني كنت أطلب من الجميع أن يستديروا ويغمضوا أعينهم كلما أردت خلع ملابسي لأخذ حمَّام، والشخص الوحيد الذي كان مسموحًا له أن يحممني كانت جدتي، وهذا فقط وأنا أرتدي ملابسي الداخلية! كنت أتشاجر مع والديَّ دائمًا لأنني لم أرد أن أنام، لذلك أخذوني لعدَّة رجال دين مشهورين، وتقريبًا «تمكَّن الشيطان مني» وألقى تعويذة شريرة عليَّ، أو هذا ما قالوه، وأن هذا ما يمنعني عن النوم.

توقفوا عن البحث عن علاج لي عندما طلبت من أمي ألا تنام بجوار أبي أو بجواري، عندها هدأ غضبي ووجدت روحي ملاذًا هادئًا وشيئًا فشيئًا عدت إلى النوم في موعد النوم. آه كان هذا منذ وقت طويل، نسيت كل شيء ولكن لم يختفِ أي منها من الوجود.

تمامًا كما عجزت عن نسيان دمعة «لونا» وهي تسيل على خدها كأنها دمعة مشتركة بيننا، وكما نسيت عدد المرات التي انتظرتُ «لونا» أن تفتح فمها لتنطق الكلمات التي كنت أتوق إلى سماعها،

وأن تقول الشيء الذي سيجعلني أطير من الفرح.. تلك الكلمات التي ستمنح أهم ولد في حياتها أجنحة.

حدث كل ما تمنيت حدوثه ذلك الصيف، عندما تلاشت كل الصدمات التي تعرضت لها في طفولتي من ذاكرتي. عندها فقط بدأ العم «بيتسي» بتعنيف «لونا»، وفي أغلب الأوقات لم تكن تعلم السبب حتى!

بكل بساطة، شكَّلت البنية الجسمانية الجذابة عائقًا أمام النساء في ذلك الوقت، كانت تلفت الأنظار إليهنَّ وتميزهنَّ عن غيرهنَّ، وهذا كان محظورًا عند الآباء؛ الخطيئة الكبرى، على الرغم من أن عيونهم كانت دائمًا ما تتفحص الأجساد المثيرة حولهم، نادرًا ما كنت أرى «لونا»، وحتى عندما كنا نتقابل، لا أجد ما أقوله لها، كل ثانية معها كانت عذابًا لي، يجفِّف حضورها حنجرتي وتتلاشى شجاعتي في كل مرة، على الرغم من أنني كنت أفكِّر فيما سأقوله لها قبل كل مقابلة بكل التفاصيل، بدءًا من اللحظة التي أنظر إليها مباشرة في عينيها دون خوف، منتظرًا حدوث شيء خارق للعادة. ظلت الأمور هكذا حتى رأيتها مرة بكدمة ضخمة في عينها، عندها اسودت السماء وغطَّى الظل حواجبي، واهتزت الأرض بشدة تحتي، وقلت لها:

- يومًا ما، سأضرب والدكِ.

وانهمرت دموعنا المشتركة مرة أخرى على خدها، ومعها خرج كل شيء أردنا أن نقوله طوال حياتنا

بتعبيرات صارخة. بعدها ركضت «لونا» بعيدًا مرة أخرى، بعد ذلك لم أرها ثلاثة أيام، تجولت حول منزلها مئات المرات وتمنيت مئات الأمنيات عند عتبة منزلها، أرسلت أمنياتي لتتسلل بجانبها، ولتراقبها مثل قزم صغير ليريحها من حزنها. هكذا بدأ حبنا الحقيقي، في ذلك الوقت في بداية القرن العشرين في مقدونيا في البلقان، في مكان بعيد جدًّا لم يُعرف له اسم.

***

الراوي



لننتقل قليلًا إلى حانة المدينة لنرى ما الذي يناقشه كل من «ميتري» و»بيتسي» - والدا «لونا» و»صاني» - ومالك النزل «مانيا»، والقس:

- يبدو أن السماء تكرهنا، اللعنة! إنها ترفض التبول علينا لتعطينا بعض الماء، أو بعض القطرات الثمينة. لو لم يحدث شيء، ما الذي تقترحه يا أبي، ما الذي يقوله إلهك؟ لِمَ لا يرسل لنا بعض المطر ليغسل القذارة التي تجمَّعت على هذه الأرض؟

- من يعلم؟ ربما طفح به الكيل من كثرة الخطَّائين، ويفكِّر في جعلهم يتعفنون.

- لم أكن أسألك يا «بيتسي».

- أوه عراك الحمقى مرة أخرى؟ تريد كأسًا من النبيذ يا أبانا؟

- نعم نعم، نبيذ ولكن اجعلها كأس نبيذ أبيض، النبيذ الأحمر ثقيل جدًّا في هذا الوقت من اليوم.

- يا أبانا، إذا كان النبيذ الأحمر دم الإله إذن ماذا عن النبيذ الأبيض؟ أم يجب أن أقول النبيذ الأصفر؟ ها ها ها. «ميتري» هل تعرف الإجابة؟ هل تعرفها أنت يا صاحب النزل؟ هاه؟ ها ها ها.

- توقف يا رجل، سأبلل ملابسي من الضحك، اللعنة، أنت تعرف جيدًا الإجابة، لقد مزَّقت خاصرتي من الضحك، هي هي هي، سأسكب وعاء النبيذ هذا من الضحك إذا لم تتوقف.

- يعتمد الأمر على كل شخص يا «بيتسي»، هذا ما قصده القس، يعتمد الأمر على وجهة النظر التي يراها.

- ما الذي تعنيه بـ»يعتمد الأمر» يا أبانا؟ بكلمات أخرى، ما تقوله هو أن الأمر يختلف بيني وبينك؟

- نعم ولا، كل عطايا الرب موحدة في كل مكان، يعتمد الأمر على نظرة الفرد لها وكيفية رؤيته إياها. بالنسبة إليَّ، كل شيء به روح الرب، من الأرض التي أخرجت العنب حتى كأس النبيذ في يدك. بالنسبة إليك، قد يكون العنب مجرد عنب والنبيذ مجرد سائل. يعتمد الأمر على الفرد.

- حسنًا أبي، يمكنني أن أرى أنك شخص متعلم، أي شخص معذور إذا لم يفهم طريقة كلامك. اللعنة! دعني أحضر لك بعض النبيذ، أنت روح طيبة في النهاية.

- أجل يمكنني التحدث ولكن من يعلم إلى متى، كما ترى جميعهم هنا ليخبرونا ماذا نفعل، وماذا ندعو أنفسنا، يأخذون الكلام من فمك ويزرعون

كلامًا جديدًا مكانه، يريدوننا أن نرثي أسماءنا، وندفن عظامنا تحت سماء مختلفة، ويحولوننا، ويعبثون بشواهد قبورنا، هذا ما يريدونه. البلغاريون، الصرب، اليونانيون، كلهم ونحن لا نملك القوة حتى لنتصدى لهم، ولكن إذا سألتني، أتعرف ما الذي علينا فعله؟

- دعك يا أبي، انسَ الأمر، لست مهتمًّا بالسياسة.

- نعم أنت لست مهتمًا، لا أحد منكم كذلك وهذا ما سيضمن هلاكنا، سنضمن هلاكنا، بكرهنا بعضنا بهذه الطريقة.

***

الراوي



كما تعاهدت الأقدار، حان الوقت الذي يكتشف فيه «صاني» جميع ألوان الطيف، ولكنه لم يوجِّدها بعد.

صاني



بعدما انهمرت دموعنا المشتركة، التي ظلت متعلقة فترة طويلة ولكنها لم تكن على خدها بل كانت على مشاعرنا غير المعلنة، جاء شعور الترقُّب. عاد كل شيء كما كان، ولكن لم يكن كما كان بالضبط، جفَّ حلقي وهربت كلماتي وعجزت عن التعبير عما أردت قوله، وأخفضت عينيَّ في الأرض متخيلًا شفاهها، بدلًا من النظر إليها بلهفة. حتى جاءت «لونا» في يوم ما واقتربت مني، وصرنا كجبلين انتُزِعا من بين مَراعيهما الدائمة، أو هكذا قد أصف انجذابنا إلى بعضنا، وقبَّلتني «لونا» على خدِّي بخفة وبقوة، كما يقطع المنجل الذُرة، واستدارت مرة أخرى وجرت بسرعة كنسيم خفيف، أو كورقة شجر تتطاير تحت تأثير رياح الخريف. ولكن الرياح هدأت، ووقفت «لونا» فجأة، وظلت هكذا وبعدها استدارت واقتربت مني بضع خطوات مترددة ونظرتها مثبتة على الأرض وقالت:

- لا أعلم لماذا فعلت ذلك، لا تخبر أي أحد وإلا

سيقتلني أبي.

وانطلقت مرة أخرى، عندما عدت إلى المنزل، تذكرت قصة حكتها جدتي لأمي مرة. القصة عن امرأة، أسلمت بعد أن انتظرت عودة زوجها عشر سنوات، وهربت مع قائد عثماني لتصبح زوجته المسلمة. ولكن بعد عدة سنوات، غادر الأتراك مقدونيا، بعد أكثر من خمسمائة سنة من الحكم

العثماني فيها. لم تكن تتوقع هذا، مَن كان ليعلم أو ليصدِّق أن الأمر سينتهي بعد خمسة قرون؟ وتحديدًا في الوقت الذي لم يرده أحد أن ينتهي فيه؟ يصعب تخيل أن حبًّا أقوى من الزمن سينتهي يومًا ما، لم يأخذ القائد زوجته الجميلة المسلمة معه إلى تركيا، وتركها وحيدة وبعد مدة قصيرة عاد زوجها، ولكن جمالها كان قد زال من كل الضرب المبرح الذي تعرَّضت له من أشقِّاء زوجها ولكن زوجها هو من قضى عليها!

لقد طردوها في الشارع، ووجهها مغطى بجروح حديثة وعليه آثار سكِّين تخص زوجها، الذي لم يسأله أحد كيف أمضى سنواته العشر الأخيرة في أمريكا، وكيف أشبع رغباته وشهواته. لم تكن نهايتها على يد من أحبتهم فحسب، بل بصق عليها كل من مرَّ بجانبها كأنهم يقتصون من العثمانيين من خلالها.

نادوها بكل الشتائم والألقاب الموجودة حينها:

- عاهرة. عاهرة تركية. لعنكِ الله بالحظ السيئ. أتمنى أن تكرهي اليوم الذي ولدتِ فيه يا فاسقة. استمتعتِ هناك مع القائد وأكلتِ الحلوى التركية

والبقلاوة، أليس كذلك؟ حسنًا أنتِ هنا الآن كلي بعض التراب، هيا كليه.. ابلعيه يا عاهرة!

كرروا هذا الكلام عليها وملؤوا فمها بالتراب، ما الذي لم يفعلوه بها بعد؟ أصبحت الآن متسولة وبعدها هربت إلى «صوفيا»، أو هذا ما يُقال وفقًا لجدتي.

حدث كل هذا في الوقت الذي وُلدت فيه، وبعد نحو عشرين سنة، أصبحت القبلة بين جسدين غير مرتبطين بكلمة الرب محظورة عنده، كانت شيئًا غير مسموح لك بالتفكير فيه، ومع ذلك كما قلت من قبل؛ يفكِّر الجميع فيه، وبعضهم مهووس بالأمر لدرجة أن الشهوة الحيوانية أفسدت أدمغتهم. تلك القبلة التي أعطتها لي «لونا» خطيئة، لدرجة أنني أجزم أن قتلك أخاك لن يكون بفظاعة تقبيل امرأة غريبة عنك في ذلك الوقت. ولكن في تلك الليلة، كنت أبتسم كما لم أبتسم من قبل، اقتحم أبي الباب والغضب باديًا على وجهه، وبَّخني لأنني لا أعمل في الحقول، وتذمَّر لأن شيئًا لم يُزرع كما

خطط له، ومن يعلم ماذا أيضًا. تلك الليلة، ولأول مرة، أعتقد أن كلمات أبي مرَّت من فوقي لا من خلالي.

الراوي



من المقدَّر أن يغير الناس بعض معاني الكلمات، في هذه الحالة عندما يكون الصيف هو الشتاء والشتاء هو آخر الخريف. وكما تعاهدت الأقدار، قد يخرج كل شيء عن السيطرة، ويستحيل حدوث شيء معيَّن وإلا سيؤدِّي ذلك إلى حدوث فيضان هائج شديد الغضب ومثمر مثل أول قبلة ربيعية بين النحلة والزهرة.

صاني



بعد حدوث ذلك الأمر بفترة طويلة، طويلة جدًّا، عاد كل شيء كما كان، ولكنه لم يكن كما كان بالضبط، حتى أتى اليوم الذي انفجرت فيه الشمس مثل يقطينة ناضجة أكثر من اللازم، وأبقت حرارتها المتفجرة الجميعَ في منازلهم في الظل، ونحن نتجه بصمت نحو الغابات القريبة، كل على حدة لكيلا يرانا أحد كما نرى أنفسنا. منذ ذلك الوقت، كانت عيناها، الزرقاوان المتفردتان بلونهما، تنظر إليَّ بطريقة مختلفة عن أي شيء آخر. كنت مستعدًّا لإعطائها كل شيء على طبق من فضة أو لا شيء على الإطلاق. على أي حال، لم يكن ليُحدث الأمر فرقًا. وُلد تفانٍ عظيم داخل «لونا»، الفتاة التي سمَّيت تيمنًا بالقمر، وبفخذيها الشبيهين بالثعابين، وصدرها الذي يشبه الصخور البيضاء. كنت أستمتع برؤيتهما أيام الغسيل عند النهر حيث كانا يخرجان من مخبأهما. مخبَّأين بشكل جيد لكيلا يطاردهما سوء الحظ أو الرغبة «السرية» التي يرغبن بها سرًّا. انقضى وقت استراق

النظر بالنسبة إليَّ، ولم يعد النهر المكان الوحيد الذي يمكِّنني من رؤية «لونا» كامرأة، بل أصبح المكان الذي تصبح فيه ملكي وأكثر من مجرد نظرات من بعيد، كما كنا قبل القبلة، وقبل زياراتنا المشتركة إلى الغابة.

أشك أن أمي لاحظت أي اختلاف في عينيَّ، وأنني غير موجود حتى وأنا موجود معهم، ولكن جدتي بالطبع لاحظت ما لا يمكن رؤيته. عندها مسَّدت رأسي برقَّة أكثر من تلك الأيام التي كانت تهدئني فيها وأنا طفل، ولكن هذه المرة فقط تحدثت إليَّ بالكلمات بدل استخدام يديها الخشنتين:

- بني، هل أطلب من والدتك أن تعثر لك على عروس؟ أنت لست صغيرًا بعد الآن، ما رأيك؟ وأرى أن الوقت قد حان لـ»لونا» أيضًا...

لم أسمع أي شيء قالته بعد ذلك، وفي منتصف الحوار، عانقتها بشدة كما كانت تعانقني وأنا طفل. حددت جدتي هدفها وفي ليلة ما بعد عودة والدي إلى المنزل، تغيَّرت ملامحه الحزينة للحظة ونادى على أمي والتي ملأت فورًا قارورته دون أن يطلب منها، ووقفت أمامه في انتظار كل الأشياء «غير الضرورية» التي ستخرج من فمه كالعادة، وقال لأمي:

- لقد حان وقت وغدك الصغير. أرسلي أمي لتبحث عن عروس له، واطلبي منها أن تطلب يدها للزواج منهم. بالنسبة إلى المال ليس لديَّ ما أقدِّمه، ولا حتى ماشية أو دجاج أو أي شيء من هذا القبيل.

دعيها تعرض عليهم أي شيء تافه نملكه كمهر لها وإذا وافقوا على تقديمها لنا هكذا، هم أحرار. يستطيع ابنك أن يطعمها بعد ذلك، يده ليست كبيرة وقوية عبثًا.

شعرت أمي بالفرحة والحزن في آنٍ واحد، تمامًا مثل قدرها في الحياة، ولأول مرة تحررت تلك الدمعة الخفية المظلمة التي كانت محبوسة في عينيها، وتخللت الدمعة تجاعيدها السابقة لأوانها.

لكي نقوم بكل شيء حسب العادات، علينا العثور على خاطبة. شخص قريب للعائلتين ويعرفهما بشكل جيد ويعرف جيدًا ما يجب أن يُقال، ويتدبَّر أمر كل الكلام المعسول المطلوب. وقع اختيار جدتي على «مارا» المرأة التي ساعدتها في أثناء ولادتها مرتين. إحداها كانت وهي تعمل في الحقول، والتي بعد ذلك أشارت إليهم بـ»أطفالها». قالت جدتي:

- آه، في تلك الأيام، حرصنا على متابعة العمل في الحقول بعد الولادة مباشرة، ولم يكن الأمر كما هو عليه الآن.

كنت أضحك على كلامها وأخبرها أنها لا تعرف أي شيء عن الأطفال، تحديدًا أسطورة أولئك الذين يوصلهم طائر اللقلق. كانت «مارا» خاطبة معروفة، ويُعرف عنها أنها عندما تدخل أي

بيت، لا يقتصر الأمر على قبول أهل العروس بزواجها من العريس، ولكن يُقال إن العريس والعروس يصبحان كيانًا واحدًا من شدة سعادتهما عندما ترتِّب هي الزواج. ولكن يُقال إن الأمر لا ينتهي عند ذلك، عندما يجري

الزواج، تتردد «مارا» على بيت العروسين مرارًا وتأكل كل شيء وتكرر «أنتما سعيدان هكذا بسببي»، ولكن جدتي قالت لي ألا أقلق وأنها ستحرق «مارا» بالماء المغلي كدجاجة قبل أن يحدث ذلك.

في مساء الجمعة، ووفقًا للتقاليد، أتت «مارا» إلى منزلنا، لأنه عليها الذهاب من منزلنا، هكذا يتم الأمر، ووضع أبي فأسًا عند عتبة الباب لتقفز من فوقه لكي تكون كلماتها حادَّة كنصله؛ فقد أمضى أبي وقتًا كبيرًا وهو يشحذه أمس. أوقدت جدتي النار مع أن الجو حار وبصقت ثلاث مرَّات عليها لكي تئزُّ الفتاة بالرغبة تجاه الشاب مثل أزيز النار عندما بصقت فيها. كنت غارقًا في عرقي بسبب النار، كان أبي يتعرَّق أيضًا ولكنه لم يقل أي شيء. سكبت أمي كوب ماء خلف «مارا» وهي تغادر لكي تنساب كلماتها كالنهر.

قفزت «مارا» من فوق الفأس والتفتت وقالت:

- «صاني» أيها الشيطان المحظوظ! فقط انتظر وسترى العروس التي سأحضرها لك، أدعو الله أن يرزقها توأمًا.

عندها وبَّختها جدتي لأنها التفتت وقالت إنها قد تفسد كل شيء هكذا ولكن «مارا» أصرَّت أنها لم تفسد الأمر لأنها لم تدخل المنزل، مشيرة إلى أنها بالكاد التفتت، وقالت لجدتي ألا تثرثر كثيرًا لأنها تعرف عملها جيدًا، نعم قالت لها هذا. ذهبت الخاطبة مسرعة في حذائها الجديد الذي حصلت عليه مقابل خدماتها، كما جرت العادات والتقاليد تلك

الأيام. ومعها كل الاحترام الذي ستحصل عليه في الزفاف، حيث تكون الخاطبة أهم من الإشبين، كي تقابل والدي «لونا» اللذين كانا أفقر مما نحن عليه، وسيرفضان بشدة أن تذهب ابنتهما «أجمل

فتاة تربَّت على الذرة والعصيدة وزيت عباد الشمس» للعيش في حاوية قمامة بائسة أخرى، ولكنهم لم يعرفوا بعد أنها ليست بائسة فقط لمجرَّد كونها حاوية قمامة.

الآن أنتم تعرفون كل شيء، وكيف ساقني القدر إلى سفينة بحثًا عن شيء يُبعدني عن «لونا»، ويُعيدني إليها عندما يمرُّ الوقت ويمحو كل شيء كان علينا أن نعيشه معًا ولكننا لم نفعل...

كانت الأوقات السابقة لمغادرتي من أفضل وأسوأ الأوقات لي ولها في الوقت ذاته، حيث لعننا القدر الذي رفض أن نكون ما نحن عليه. كانت أسعد الأوقات؛ لأنني و"لونا» قررنا التمرُّد عليها، بطريقة لا يمكن أن يتوقعها الأشخاص العاديون أولئك الذين مشوا في درب العادات والتقاليد كما هو، دربٌ مشيَّد على حس خاطئ بالصدق والعدالة، وحس خاطئ آخر بالإيمان والاحترام، وليس في الأمر خيانة لرغبة الفرد التي تبقى مقدسة بالطبع، ولكنها تظل خفية فقط لأنها تخالف القواعد. تلك القواعد التي تسببت في اكتئاب الآلاف من الناس الذين ولدوا برغبات لن تُلبَّى أبدًا. بالنسبة إليَّ و"لونا»، تمردنا، والذي لم يكن واضحًا للجميع، ذهبنا إلى أماكن يذهب إليها الجميع عادة. تمكنا

من تعرُّف بعضنا، وأن نستكشف بعضنا وأن نتعرَّف أكثر المناطق حساسية في أجسادنا. تركنا الماشية ترعى وتتبع غرائزها ودخلنا نحن إلى أبعاد جسدية لم نكتشفها من قبل دون خجل أو حزن. اكتشفنا أن للمرأة نقطة قوة، بينما تحتاج نقطة أخرى إلى نوع مختلف من الاهتمام، وتتهيَّج نقطة أخرى بسبب الحركات المختلفة للجسد الآخر. كانت هذه الطريقة التي اعتمدناها لقراءة بعضنا، وكيف تعرفنا بعضنا عن ظهر قلب، سطرًا سطرًا، مثل ذلك الكتاب المدرسي الذي قرأناه أكثر من مرة، مشابه تمامًا لما فرضته علينا الأمم الأخرى مترجمًا، وقاومناه تمامًا كما قاومنا بيئتنا. لم يستطيعوا أبدًا تفهم أن أهم شيء عندنا هو أن نعلِّم أنفسنا بأنفسنا، وأن نتعرف أجسادنا من الرأس حتى أصابع الأقدام، مرة تلو الأخرى. أن نتكشَّف بصورة دائمة وأن نكشف أسرارنا التي قرَّبتنا من بعضنا أكثر لدرجة أننا عجزنا عن إخفائها ووضع حدود لتلك الشهوة التي لم نتشاركها سوى مع الغابة. ولم يقتصر الأمر على هذا، لم نكتفِ بالوصول إلى الذروة كل مرة. لهذا السبب تجاوزنا حدودنا في كل مرة، ولم نكتفِ بالتفاف أجسادنا حول بعضها بعضًا مثل نبتة معترشة.. لا. مزجنا كل شيء معًا وسكبناه في أجسادنا معًا. كنت مذهولًا في اللحظات التي علمت فيها أنها ترى

السماء كما أراها تمامًا ولكنها ترى الأرض بصورة مختلفة، وكيف أخذتنا تلك الاختلافات بمحاذاة النهر ذاته، مثل تيارين يحاولان تحديد من أكثر شدَّة بينهما، يتصارعان عند أقرب

فرصة، منذ بداية الزمان، من يعلم؟ ربما قبل ذلك حتى، عندما ظهرت المياه أول مرة على سطح الأرض. ما تولَّد بيننا وقتها تطور بسرعة، وسبق كل شيء كنَّا مستعدين وغير مستعدين له، لم يترك لنا مساحة لنفترق حتى. عندما تختنق في جلدك وفي بيئتك الخاصة، من الطبيعي أن يُفسح شيء ما المجال. بالنسبة إلى أهلنا، أفسح الأمر المجال للعار، وعند جيراننا للفرح. فرحة غامرة لأنه الآن أصبح لديهم عذر لإضاعة ساعات على الحديث التافه، ومناقشة مصيرنا وتعاستنا. تقريبًا رآنا راعي الماعز "تراجشي» في الغابة، أنا بمؤخرتي العارية و"لونا" بصدرها المكشوف، والذي يجب عليها حفظه للرجل الذي يختاره والد الفتاة وفقًا للقواعد. الرجل الذي إما سيهتم بهما جيدًا أو يعاملها كماشية اشتراها من سوق ما، يعتمد الأمر على سعادة الفتاة بالاختيار الذي يُفرض عليها من شخص آخر. أعتقد أن "تراجشي" شعر بالقرف مما رآه. لم يكن سليمًا عقليًّا، وعندما رأى ذلك المنظر، تحمَّس أكثر من اللازم ولم يعلم ما الذي عليه فعله. شعر المسكين بالغثيان وركض إلى والده ليخبره، الذي بدوره لم يعلم ما الذي عليه قوله. شعر "تراجشي» بالخوف لدرجة أنه نسي الماعز وتاهوا في الغابة. واستغرق الأمر مع والده يومًا كاملًا لكي يجمعها مرة أخرى. وبعدها تشاجر مع أبي، شجارًا عرف به جميع الجيران حتى قبل أن يحدث. انتشر في أنحاء المدينة أسرع من انتشار الوباء، لا توجد كلمة كافية لوصف الألم الذي اضطررنا إلى تحمُّله بعد تلك

الحادثة. وبعد ذلك، حدث ما ظل يحدث على مدار التاريخ، تغيَّرت معاني الكلمات مرة أخرى. ذلك الذي أحب أصبح "شهوانيًّا" وتلك التي أحبته أصبحت "عاهرة». الفتيات القبيحات من المدينة، تحديدًا من لا يلفتن نظر أحد، أصبحن في منزلة القديسين، والرجال المتزوجون حديثًا الذين يعنِّفون زوجاتهم حتى قبل أن يبرد الفراش، كانوا أزواجًا جيدين.

ظِل الشجرة المحبوبة الذي أخفينا أنفسنا به، ولطافة العشب الكثيف الذي طفونا فوقه، كلاهما أصدر أصواتًا عالية في الغابة المهجورة، وأطلقوا زئيرًا عاليًا شق طبلات آذاننا أنا و»لونا» وتركنا عاجزين عن سماع أي شيء، حطمنا كل شيء.

***

الراوي



في الحانة مرة أخرى...

- هيا، توقفا أنتما الاثنين. أنتما جيران بحق المسيح. أنتما الآن تتشاجران بسبب أطفالكما. هيا، خذا رشفة من «ماء النار» ودعا غضبكما ينطفئ. هيا اطلبا بعضًا من «الراكيا» لتطهير حلقكما.

- أنا لا أشرب مع أي أحد! قد تصبح الـ «راكيا» مُرَّة في حضور الصحبة السيئة.

- ما الذي تعنيه بهذا يا جاري؟ أتريد ابتلاع كأسك بأكمله؟

- «ميتري» ضع الغطاء مكانه، وتوقف عن تلويح عصاك في الأرجاء.

- لو كنت خائفًا من عصاك يا «بيتسي» لبقيت في المنزل. لا يستطيع غصن جاف مثل هذا نفض التراب عن ظهري!

- لست متأكدًا بشأن هذا. فقط المس إصبع قدمي

وسنرى ظهر من هو الأنعم.

- أوه أيها الضعيف، عليك الانتباه عندما تذهب إلى الصيد، قد تكون هناك رصاصة عليها اسمك.

- لا أريد سماع أي من قصص رصاصاتك يا «بيتسي». أستطيع سحق مخططاتك مثل الخبز والحليب بيد واحدة.

- أنت تسحق الكثير من الأشياء بالفعل، ولكن احذر قد تختنق بأحدها يومًا ما. «الخبز والحليب» جافان هنا، ولكنهما ليسا مضرين. يدي ليست كبيرة هكذا بسبب لف الخيوط وضرب القش.

- «بيتسي»، إذا استهزأت بي مرة أخرى، لن يستطيع أحد تعرفك. لا زوجتك ولا أولادك، أفهمت؟

- زوجتي وأولادي؟ زوجة وأولاد من؟ اللعنة...

- اهدآ أيها الديوك الغاضبة. عَدِّلا من ريشكما المنفوش. إذا أردتما الشجار اخرجا! لا تصيباني بالصداع. همف! لقد جئتما هنا وأحدثتما هذه الفوضى بعد كأس واحد من الـ»راكيا»!

- «ماندزا» أنت لا تطردني، أليس كذلك؟

- استمع لما يقوله الآن! «أنت لا تطردني»؟ أنت هنا كل يوم، كيف يمكنني طردك؟ ولكن لا يجب عليك الشجار هنا! هذا خطأ. لا أعلم حتى سبب كرهكما بعضكما. لقد تعرضنا للضرب في مكان آخر من قبل والآن نحن نضرب بعضنا! لا تكونا هكذا. هذا خطأ. إذا كانت لديكما مشكلة، اجلسا وتناولا بعض كؤوس الـ»راكيا»، ولا تكتفيا بواحدة فقط وحلا مشكلاتكما

كالرجال، وليس بهذه الطريقة! هذا ليس صائبًا. هيا يا أبي أخبرنا إذا كان هذا صحيحًا أم لا!

- أولًا اسكب لي كأسًا من النبيذ. من ذلك النبيذ الأسود، الثقيل الذي ينساب كالزيت وليس ذلك الشيء اللاذع.

- خذ يا أبي، عسى أن تتحول إلى دماء، إن أراد الإله الذي فوقنا ذلك.

- من فمك إلى أذن الإله يا بني. أوه أوه هذا جيد جدًّا. النبيذ مشروب إلهي! يُقال إنه دم المسيح. هل من الصواب سكبه على الأرض؟ لا! وليس من الصواب إراقة الدماء على الأرض. كل ما أستطيع قوله لكما إن الشجار ساعِد الشيطان الأيمن، وها هو ينظر إليكما بسعادة، إنه يطير من الفرح، والملائكة تبكي. كلاكما افعلا ما شئتما ولكن في النهاية ستعرفان أأغلق القديس «بيتر» الباب في وجهيكما أم لا.

- حسنًا يا أبي، لقد قلت كلمتك، الآن اجمع شتات نفسك. هيا اشرب واخرس! ولا تبدأ في تلويح عصاك في المكان! «ماندزا» أعطنا فاتورة الـ»راكيا»؛ لم أعد أرغب في الشرب. لا نستطيع الحصول على بعض الهدوء في الحانة. عديمي الفائدة الملاعين! وأصلح الباب يا «ماندزا»! لا يُغلق ولا يفتح! هيا أغلقه بنفسك!

***

- حسنًا، بابي ليس أفضل حالًا من باب «ماندزا»، ربما سأصلحه لاحقًا، في الشتاء، عندما يكون العمل

قليلًا. زوجتي! لقد عُدت إلى المنزل. هيا اسكبي لنا شيئًا قويًّا، بعضًا من ذلك الشيء الأبيض، وليس الكهرماني.

- بهدوء! ألا ترى أن الأطفال نيام؟

- أرى ذلك، ولكن اسكبي لي كأسًا وإلا أريتكِ لاحقًا!

- سأسكب لك كأسًا كما أفعل كل ليلة! وهل منعك الكأس عن فعل ذلك من قبل؟ تفضل.

- اسمعي، ذلك الفلاح والد «لونا» لا أستطيع تحمُّله بعد الآن. عقِّليني وإلا فعلت شيئًا غبيًّا في حال قادتني «الراكيا» إلى موقف لست في حاجة إلى أن أكون فيه. وينتهي بي الحال في سجن ما بسبب فاسد مثله. لا أريد أن أبيت في السجن.

- إذن أعطه نصف الحقول وسيقتنع، ما الذي تريد سماعه غير ذلك؟

- اللعنة! نصف الحقول اللعينة؟ قول هذا سهل جدًّا عليكِ، أين سنزرع محاصيلنا؟ ما الذي سنأكله في الشتاء؟ خصوصًا إذا لم يعطنا أي شيء ذلك الفلاح اللعين. لا أريد أن أعطيه أي شيء، ولا أن يصبح نسيبي يومًا ما. وذلك الزفاف اللعين! لن أرقص معه «رقصة الجبل»، أفهمتِ؟

- فهمت فهمت، ولكنني لست متأكدة أنك تفهم الأمر. ليس للأمر علاقة بمن سترقص معه ولكن ممن ستحمل أحفادك من ابنك!

- دائمًا ما تغيرين الحقائق، لا أستطيع التحدث معكِ أبدًا! هيا اخرجي.. اخرجي من هنا.. اذهبي

وافعلي شيئًا ما، أي عمل.. هيا.

***

الراوي



«كأن الجميع يكره الجميع في هذا العالم. هناك الكثير من الكراهية، لدرجة أنها زرعت الخوف من كره الأمهات لأبنائهنَّ يومًا ما. هناك دائمًا من يريد عرقلتك. ومن يريد قول شيء سيئ عنك. عبارة «أتمنى أن يموت ماعز جاري»، تُستخدم لتتمنى الحظ السيئ لجارك، وليست مجرد عبارة. وهذا يرجع إلى أن لا أحد يستطيع تحمل رؤية شخص أفضل منه! وبسبب الكراهية التامة، أولئك الذين كانوا لطفاء لا يظلون هكذا بسبب شعورهم بالدونية أمام آخرين».

قال والد «صاني» شيئًا قريبًا مما قلته للتو لابنه. كانت إحدى اللحظات النادرة التي تحدث فيها والده معه كوالد حقًّا. في الواقع أحب «صاني» والده بالمقدار نفسه لكرهه له.

صاني



يرفض والد «لونا» سماع كلمة أخرى عن زواجي من «لونا». توسلت «لونا» لوالدتها التي توسلت لوالدها بدورها، ولكنه ضرب كأسه بقوة على الطاولة وأخبرها أنه لن يُعطيها لي ما دام على قيد الحياة. لم يُسمح للخاطبة أن تطلب يدها مجددًا، هكذا تجري الأمور في الحالات المشابهة. كان علينا البحث عن طريقة أخرى. إما أن نهرب معًا لنتزوج ونموت من الجوع وإما أن يقتلنا والدي أو والدها أو كلاهما وإما أسافر إلى الخارج لإحضار بعض «الناجتس» الذهبي لكي أربح قلبيهما. سيدمجان السياج، ويصلحان الشقوق الخفية في منزلهما، على عكس تلك الموجودة في روحهما. تلك التي خططت الطبيعة لوجودها، أو يمكن أن تكون ناتجة عن الوقت الذي قضياه معًا. لست متأكدًا من الإجابة.

في أثناء تلك الفترة الفظيعة، عندما كانت الأمور في أسوأ أحوالها وظننت أنه لا يوجد مفر، شعرت بالقرب من والدي، مجددًا. في ليلة ما، عاد إلى

المنزل كالعادة، وأزال التعبير المهموم عن وجهه، وملأت أمي قارورته. لم أتوقع منه أن يقول أي شيء غير الذي سمعته من قبل. وكانت جدتي جالسة تستشيط غضبًا بسبب الجيران الذين تحدثوا عنها بالسوء بسببي، وتشعر بالسوء لأن سنواتها الطويلة علمتها كيف يكون شعورك عندما يكون أكثر شخص تحبه في العالم بعيدًا عنك. ومن يعلم، ربما تكون خبيرة في الأمر.

كما كنت أقول، في لحظة كتلك، خرجت كلمات قاسية من فم أبي، ولكن هذه المرة بدت وكأنها مغلَّفة بالرفق. لم نستطع تصديق ما سمعناه، لأن الرفق لم يدخل منزلنا قط وأبي موجود.

- يا امرأة! اسكبي لابنك بعض «الراكيا». وأنت يا عديم الفائدة اجلس هنا واسمعني. «ميتسي» مربي الحمام سيذهب إلى الخارج من أجل العمل ولكن بعيدًا جدًّا إلى أمريكا. إذا أعطينا والد حبيبتك الفقير ذاك بعض المال سيبتهج، وهذا ما يتطلبه الأمر. هذه نصيحتي لك. أستطيع أن أطلب من «ميتسي» أن يصطحبك معه ولكن افعل ما تريد.

قال كلمته وتبدلت الدموع بالضحكات في الغرفة، وكان هذا غير معتادٍ في بيتنا، لدرجة أن جدتي رشمت الصليب أكثر من مرة لتشكر الإله تلك الليلة.

وفي صباحٍ ما، استيقظنا على أول صياح للديك. كانت الطبلية مليئة بالطعام، لكي أتذكرها دائمًا على هذه الحال ولكي أتأكد أنها ستكون كذلك عندما أعود. وضعت أمي إناءً عند عتبة الباب، أعتقد أنه

مليء بدموعها، وأخبرها أبي ألا تبكي وإلا ضربها. أصبح ابنها رجلًا، ولم يكن هذا سببًا يدعو إلى البكاء، ولكن يدعو إلى السعادة! ألقت جدتي حفنة من القمح عليَّ. ملأت يدها قدر الإمكان، معتقدة أن اليد المملوءة بالشعير ستضمن أنني لن أجوع هناك! ركلتُ الإناء ليتحطم إلى أجزاء صغيرة، من المفترض أن يجلب هذا الحظ الجيد، ولكن إحدى القطع استقرَّت في عين الكلب. غمغم جارنا بصوت منخفض أن هذه ليست إشارة جيدة، وعضَّ على شفتيه عندما لاحظ أن أبي سمعه. لكنه شعر بالراحة عندما ركل أبي الكلب بدل ركله هو وقال له:

- أيها الكلب اللعين!

ولختام مراسم مغادرتي، سكبت أمي كأس ماء ورائي لكي تضمن جريان الأمور بانسيابية معي. والآن هأنا ذا على سطح السفينة. بطريقة ما استطاعت أمي إعلام «لونا» أنني سأسافر وطلبت منها أن تنتظرني كأنها تعرف كيفية الانتظار. قالت لها «لونا» إنه لو كان هناك أمل ستنام طوال

الشهور والسنوات القادمة بعين مفتوحة لكي أطمئن في سفري. وهأنا الآن كما كنت أقول، استيقظت على سطح السفينة التي تخترق الأمواج وكلي أمل في غدٍ أفضل.

الراوي



عندما تأتي الأمطار القذرة، لا يُعتبر ذلك إعلانًا لولادة المشكلات، ولكن لكي تعلن انقشاع السواد عنها. المشكلات لا تولد. إنها موجودة منذ بداية الزمان. منذ أول قبلة بين سحابتين، في انتظار الوقت المناسب للظهور، والكشف عن أنيابها. تتكرر القصة منذ ظهور البشريِّ الأول على الأرض ولن تتوقف. على الأقل لم يتوقع أحد بعد أنها ستتلاشى، وأن قوتها ستختفي. بل على العكس.

صاني



الاستيقاظ في مكان لا تعرفه دائمًا كئيب. استيقظت أول مرة على ظهر السفينة. الناس هنا مزعجون للغاية في الصباح. أخبرني «ميتسي» أنه مسموح لنا الوجود على سطح السفينة. صعدت إلى الأعلى وغمرتني أشعة الشمس الباردة، تمامًا كالموجودة في المنزل في الشتاء لدرجة أن جدتي كانت تُجن منها وتقرص خدودنا لتدفئنا. حتى إنني بعدها حلمت بأن الشتاء سحابة ضخمة رمادية ولها يدان ممتلئتان، وتجد السعادة في قرص خدودي. وتقول بصوت كأنه صادر من كهف ما: «أوه أوه أوه، خدود صغيرة.. خدود صغيرة سأقرصها، وسأجعلها حمراء اللون».

بعد ذلك الحلم، صرخت مثل خنزير قبل أن يُذبح عندما أخذتنا جدتي خارجًا في عيد الفصح ومسحت بيضة ملونة باللون الأحمر على وجوهنا، لترشم الصليب عليها. بدأت بالجبهة، وحرَّكت يدها أسفل نحو الذقن، ثم عبر الخدَّين وهي تقول:

«أحمر وأبيض. حي وبخير. مفعم بالحيوية». هكذا كانت الأمور. هذا كل ما أذكره من تلك المشكلات الطفولية، التي تبدو مضحكة لي الآن ولكن وقتها بدت كنهاية العالم، وهو صحيح نوعًا ما، لأن أغلب المشكلات تصبح صغيرة جدًّا عندما تنتهي.

لكي أختصر لكم، أول لقاء لي مع شخص هنا - من سوء حظي - كان مع رجل من بلجراد، صربيٍّ. شيخ عمره نحو خمسة وستين أو أكبر، كان يعاني مشكلة في ساقه اليسرى، ورفيقه الأساسي هو عصا مساعدة في المشي، ولكنني عندها لم أكن أعلم أن لديه مشكلة مع زوجته أيضًا، التي في نصف عمره، وكانت ترغب في زوج بمواصفات لم تجد أيًّا منها في ذلك الشيخ. «حصلت عليها من قرية ما» كما قال الرجل.

لم يكن أهلها فقراء ولكنهم أرادوا مزيدًا من المال، وحقيقة أن الجيران سيحسدونها لذهابها إلى المدينة، وأنها بادلت الحمار بالحصان، وأن البومة أصبحت نسرًا.

تذمَّر لي على الفور من تلاشي شعوره بأن هناك مَن قد يحتاج إليه ويكون في سنه نفسه، وأضاف أن فرحته في البداية عندما اصطحب تلك الوردة الندية إلى بلجراد تحوَّلت إلى يأس؛ لأنه كما قال: «لو أعطيت تلك المرأة المختلة قصرًا، لن يكون كافيًا ولن تكون راضيةً أبدًا».

ذهب التاجر وزوجته إلى فيينا للعيش هناك وتجاهلَا الأمور، ولكن القصة ذاتها كانت في انتظاره

هناك. قال الرجل: «لم يكن هناك ما يمكن فعله وقتها». وَلداه كانا في أمريكا، وأرسلا إليه المال لينضم إليهما، حيث يمكنهما هناك على الأقل مراقبة تلك «التنين المنكوش» كما أشار إليها ذلك الشيخ. تلك التي كان يشك أنها تدفئ أسِرَّة رجال آخرين، وليس سريره هو فقط، وبدأ يخبرني بأشياء كثيرة دفعة واحدة.

- أنا أراقبها. اللعنة على كل من يشبهها. نتنزه في منتزه «كاليميجدان» وأراها، اللعنة على كل من يشبهها. تحدق إلى الآخرين؛ الرجال والنساء. كانت تحدق إلى ملابسهم. قالت لي: «اللعنة عليك وعلى أمثالك». وقلت لها: «سأضمن أن تظل نظرتكِ منخفضة هكذا على الطين مثل والدتك. لأنني سأعيدكِ إلى القرية حيث ستصرخين حتى يزرقَّ وجهكِ، أيتها الثعبانة الجاحدة!»، فقالت لي: «عزيزي لا تكن قاسيًا هكذا. حبيبي أنت تخيفني، وسأعجز عن النوم ليلًا». اللعنة عليها إلى الأبد. اللعنة، إنها تعرف كيف تستميلني، اللعنة على تلك المعرفة! وللعلم، بمجرد أن تقول شيئًا كهذا لي، أخسر أنا كل القوة وأعجز عن الرد. وفي الليل أضربها، وأصفعها قليلًا ولكن بعد قليل تمسك يدي

وأضعف. اللعنة على الشيخوخة. قبل ذلك كنت قادرًا على لَوْي العمود الفقري لجندي تركي مثل خرقة مبللة، ولكن الآن أصبحتُ الخرقة المبللة. اللعنة على الشيخوخة. بدأ نساء الحي يخبرنني أمورًا عنها. قالت «سباسا»: «ميلوتين أنت رجل جيد، لا يوجد من هو مثلك. أنت و»ميرا» كنتما كيانًا واحدًا. كيانًا واحدًا في جسدين.

ولكن «ميرا» الجديدة تلك اتضح أنها صعبة المراس. «ميلوتين» أرجو ألا أسيء إلى أحد ولا أن أقول ما لا عليَّ قوله، ولكن إذا كانت تعيش معي، سأربطها بحزام، يسمح لها فقط بمد يدها والإمساك بالخبز. كل من في البلدة يتحدث عنها. إنها حديث الساعة حسب ما سمعته في البلدة. إنهم يتحدثون عما اعتادت فعله عندما كانت تعيش في القرية. لست متأكدة إذا كنت تعلم أي شيء عن ذلك الأمر. دعني أسألك.. أنت تعلم أنني و»ميرا» كنَّا كالأخوات. دعني أسألك، ليلًا عندما تنام، كيف يمكنني صياغة الأمر.. لا تسئ فهمي.. أنا لا أسأل عن شيء آخر معاذ الرب، هل تنام بعمق؟ عليك التأكد أنها لا تغادر المنزل ليلًا. الآن لست متأكدة. لا أريد أن أسيء إليها، ولكن خذ حذرك. في الوقت ذاته، أتذكَّر «سباسا» عندما كانت شابة، ونضرة كقطرة ندى، وأقول لنفسي: «لو كنت شابًّا لكنت فوقك الآن، ولكنني لا أملك القوة، لذلك سأجلس هنا وأستمع لكِ تثرثرين. ما باليد حيلة». وتتابع: «تتساءل بالطبع، لِمَ كل هذا الكلام؟ حسنًا، أنت تعلم كيف هم الناس. يجعلون من «الحبَّة قبَّة». ولكن إذا كنت مكانك، سأربطها ليلًا، ولكنني لن أتحدث كثيرًا في الأمر لكيلا تسيء فهمي». أوبخها ثم أطردها. قلت لها في النهاية: «اخرجي! اخرجي من هنا! اللعنة عليكِ وعلى أمثالك. جميعكم تحقدون على «ميلوتين» لأن «دراجا» بجمال «ميرا»، اللعنة على كل الأموات وعليها أيضًا. لماذا ماتت «ميرا» شابة اللعنة عليها؟! ربما لم يكن السبب الضرب الذي تلقته مني. كانت تحدَّق أيضًا ولكن

ليس مثل هذه، اللعنة عليها!». وتمامًا مثلما قالت «سباسا» في اليوم التالي، عدت إلى المنزل وسمعت صوتًا ما. رأيت جاري جالسًا على الطاولة كأنه في بيته اللعنة عليه وعلى أمثاله، ويخبرها شيئًا ما. وتعبث زوجتي بكأسٍ في يدها كأنها تداعبها اللعنة عليها وعلى أمثالها. وعندها دخلت مندفعًا وقلت: «سنذهب إلى فيينا». لن يستغفل أحد «ميلوتين» في شيخوخته، اللعنة عليهم. لم تسرِ الأمور مع أولادي بشكل جيد أيضًا. لقد ذهبوا إلى أمريكا ولم أسمع كلمة منهم عن

«العودة». إنهم يعلمون أن الحياة صعبة ولا يوجد مال من حيث جئنا. ولكن هناك الحياة صعبة مع وجود المال. اللعنة عليهم. أنا من صنعهم، وعانيت لكي أهتم بهم، ولكن لم يبقَ أحد منهم ليهتم بي. والآن أنا مجبر على أن أعبر البحار لأكون معهم، وأتقيأ مثل طفل مصاب بدوار البحر.

بعد أن أخبرني بقصة حياته في دقائق قليلة، كما يفعل الناس عندما لا يكون لديهم ما يقولونه، مشغولين بقدَرِهم الذي لم يبذلوا أي جهد لتغييره، ظهرت هي من اللاشيء. ومرة أخرى جف لساني بسبب امرأة. خفضت نظري بالطريقة نفسها التي خفضته بها عندما رأيت «لونا» أول مرة. رحبت بها دون أن أنظر في عينيها، مبهورًا بمظهرها، والذي جعلني أدرك أن التحكم بها وترويض تلك الحيوية والتلقائية سيحتاج إلى اثنين مني وسيكون هذا بالكاد كافيًا، وليس ذلك الشيخ.

لم يثرني قوامها الممشوق وملابسها، التي نادرًا ما نرى مثلها تلك الأيام؛ قبعة من الريش مع غطاء للشمس. ولأنها لا تحتاج إلى شمس ذلك الصباح، فردت الغطاء بطريقة ملحوظة. حركت فخذها ببطء وبطريقة واضحة كفاية لألاحظ أنها لا تحركه هكذا في العادة وأنها تحركه لهدف ما. الطريقة التي تتخذ بها الحيوانات أوضاعًا مختلفة عندما ترى الشريك المثالي يتجول، يقاتل، يزأر، وتتحدى كل شيء حولها لكي تربح ما يبدو أنه قد يجعلها تثور.

كما كنت أقول، لم يثرني جسدها قط، والذي كان متناسقًا بأفضل شكل ممكن، ولكن بسبب عينيها. توهج عينيها الثاقبتين اللتين بدتا كأنهما لا تخشيان أي شيء، ولا تغض بصرها عن شيء، أو عن أي تحدٍّ، متلهفتين إلى أخذ المزيد والمزيد، كأنهما يشعَّان بالشباب الضائع.

قال لها ذلك الشيخ:

- هيه أنتِ! قدمي نفسكِ!

ومدَّت يدًا ترتدي قفازًا أبيض واعتصرت يدي تمامًا كما يفعل الرجال. وثبتت نظرتها عليَّ، وأضعفت ركبتيَّ.

قالت:

- أنا «دراجا». ما اسمك؟

قلت ونظرتي مثبتة على الأرض:

- اسمي «صاني».

أجابت بالسعادة ذاتها، ولكن بنبرة مغرورة:

- أوه أنت جاري. ولدت في مكان ما قريب من هناك، ليس بعيدًا عن مقدونيا، خارج «فرانيي».

وبخها ذلك الشيخ وقال:

- هيا، لا تتحدثي كثيرًا، غضي بصرك اللعنة عليكِ وعلى أمثالك!

قالت له وهي تنظر إليَّ كما لم تفعل أي امرأة من قبل في حياتي. نظرة ثاقبة جعلت رجولتي تتحرك وتتقلَّب:

- أنت فظ جدًّا. ادعُ جارنا إلى شرب الشاي معنا.

وضعت يدي في جيبي في محاولة للسيطرة على رجولتي. ومضت فكرة في رأسي فجأة، أنه وللمرة الأولى هذه الشهوة لم تكن تجاه «لونا». ولكن الشيء ذاته الذي جذبني إلى «لونا» استيقظ داخلي مجددًا، ولكن هذه المرَّة استثارته امرأة أخرى. كنت عاجزًا تمامًا. لا أعلم فيما أفكر ولا ماذا أفعل.

ولتصبح الأمور أكثر سوءًا، قال ذلك الشيخ:

- أخيرًا اقتراح منطقي، هيا يا جاري لنشرب بعض الشاي!

وجلسنا في مقصف السفينة. على الرغم من أن الجو لم يكن حارًا، كانت تستخدم مروحة للتهوية، أداة غريبة أخرى أراها أول مرة. حدَّقتُ إلى ذلك الشيخ محاولًا ألا أنظر إليها مع وجود قوة خفية تسحبني نحوها.

قلت لنفسي: «احذر يا «صاني». اضبط نفسك. اعثر على مكان خاص وخفف الضغط على

خاصرتك». وهذا ما فعلته بالضبط. استأذنت وقلت إنني سأعود سريعًا. وذهبت إلى الحمام وخرجت منه متأخرًا بعض الشيء.

عندما عدت، كان ذلك الشيخ نائمًا. أشارت إليَّ «دراجا» أن أجلس وهي تستعرض يدها داخل القفاز وخاتمها، ولكن نظرتي اتجهت إلى ساعِدها العاري فوق القفاز. لم أستطع الانتظار حتى يستيقظ ذلك الشيخ. قلت شيئًا غير مفهوم واستدرت، لا أعلم حتى في أي اتجاه وعدت إلى داخل السفينة. أشعر أنني محطَّم ومهزوم على حساب رجولتي والتي اكتشفت للتو أنني لا أستطيع التحكم فيها بسهولة. لم أكن أدرك أنها ما ستجلب لي أرقَّ متعة لي، وفي المقابل تملأني بخيبة الأمل والسخط وتجبرني على مواجهة حقيقة أنني عاجز عن الإخلاص في الحب.

فكَّرت على السفينة في كل شيء مرارًا وتكرارًا، ولم أعِر «ميتسي» أي انتباه وهو يخبرني عن الوظيفة الجديدة التي سيحصل عليها، وكيف سيكون محملًا بالأموال عندما يعود إلى المنزل ويشتري لأولاده ملابس جديدة لعيد الفصح. وربما لن يشتري شيئًا لزوجته لأنه لا يذكرها حتى. وبالنسبة إلى نفسه، سيشتري أغلى حمامة زاجلة وحلقة ذهبية ليثبِّت بها الرسائل، والتي لن تصل إلى أي أحد لأكون صريحًا.

جلست هناك في حالة من البؤس لا تصل إليها في فترة قصيرة إلا بعد التفكير في شخص آخر غير تلك التي كنت ستحرِّك الجبال من أجلها، والتي تعني

لك العالم بأكمله. فكَّرت وقلت لنفسي: «إذا كنت عاجزًا عن الوفاء للشخص الأكثر أهمية في حياتك، هل كانت مهمة حقًّا؟ لا أعلم ما خطبي».

ولكن ما أعلمه هو أنني في قمة ارتباكي! إذا جاءني الرب بنفسه إلى الأرض وأخبرني أنني سأفكِّر في امرأة أخرى غيرها، ما كنت لأستجيب له. وكنت لأقول له، مع كل احترامي لدوره النبيل في هذا العالم -كما يراه البعض مع وجود من يستغله كما لا يجب - إنه لا يحق له أن يقول شيئًا كهذا، وإنه لن يحدث أبدًا ولو في الأحلام! ولكن هأنا ذا، بعد سنوات من التأكد، نظرة واحدة غيَّرتني. قلت لنفسي: «اللعنة، هذا ما تتوقعه من رجل».

كما كنت أقول، قلت الكثير من الأمور لنفسي وقلت لنفسي إنني في الوقت الحالي لا أملك الإجابة لتلك الأسئلة. لذلك سأنتظر وأرى ما سيحضره المساء والصباح حتى إن سبب لي الانتظار شعورًا غريبًا بعدم الراحة.

الراوي



الخطيئة هي المستأجر الأول. لقد سكنت البشر منذ حِقب ما قبل التاريخ، وعلَّقت أفئدتهم بالشهوات عندما تكون محمودة أو مرفوضة. لم يهرب منها أحد من قبل. فقد كُتِب أنه «مجرَّد التفكير قد يكون إثمًا أيضًا». ولا يوجد شخص في هذا العالم لم يستمتع من قبل بفكرة آثمة، وقليل من لم يقترنوا بخطيئة ما، هذا إن وُجدوا.

صاني



وما الذي أحضره الصباح؟ الشيء ذاته، ما الذي قد يُحضره غير ذلك؟ خيَّم عليَّ الشعور ذاته بعدم الراحة بسبب حلمي الذي ظهرت فيه «لونا» - أول مرة - على هيئة وحش.

أرادت أخذ شيء من يدي. ما هو؟ لم أره. فتحت فمها وخرجت منه النيران، وفي الوقت ذاته خرجت النيران من شعرها وعينيها، من المناطق التي كنت أحدِّق إليها وأمسِّد عليها أغلب الوقت.

استيقظت وقادتني قدمي فورًا إلى سطح السفينة، على الرغم من أنها في الوقت ذاته بدت كأنها تسحبني إلى العودة، اللعنة عليها لأنها لم تعيدني في تلك المرة الأولى.

لم تكن هي ولا ذلك الشيخ هناك. ثلاثة أيام، صعدت على سطح السفينة حيث أغنى الركَّاب وأفقرهم يحظون بفرصة نادرة لمراقبة بعضهم، من مسافة آمنة بالطبع. ثلاثة أيام لم أرَ أيًّا منهما. شعرت ببعض الراحة بعد أن أوهمت نفسي أن

اشتهائي المرأة الصربية كان بسبب دوار البحر والإرهاق. حسنًا، كما جرت العادة، لا يعود الرجل حرًا عندما تزداد ثقته بنفسه قليلًا.

لكن هدوئي الهش ارتبك في اليوم الرابع عندما كدت أنجح في البقاء داخل السفينة، متعمدًا الكذب على نفسي بأنني لا أحتاج ولا أرغب في رؤيتها مرة أخرى. تلك العاهرة التي لم تشعر بالقرف عند تدفئتها جسد شيخ، والتي يمكنها أن تقدِّم نفسها لكل من يرغب في أن يحيد عن الصراط المستقيم. ولكن كل الآليات الدفاعية التي فكَّرت فيها لم تكن جيِّدة كفاية لأتحاشى ذلك اللقاء الموعود. كانا جالسين مثل ثنائي منسجم، على كراسٍ مريحة على سطح السفينة. كان ذلك الشيخ نائمًا، وقيدتني هي بنظرتها وسحبتني نحوها، من الواضح أنها تخون رغبة ما في أن تُسحق بثقل وجودي. لم أقاوم، على الرغم من أنني تساءلت طوال الوقت: «لماذا أتحرك تجاهها؟». كررت لنفسي أن هذا خطأ فظيع وأنه عليَّ الهروب من هذا الإغواء، ولكنني استوعبت بالتدريج أنها لم تسمح لي بالابتعاد إلا بمعجزة. مع الأسف يندر حدوث المعجزات. ببساطة استسلمت وسلَّمت نفسي بالكامل للوضع الحالي. كأنني داخل عربة فخمة تهزني حتى الصميم، وأجفل من الخوف في كل مرة تمر العربة فوق حصاة.

القصة الأولى



ما الذي عليَّ قوله؟ ما الذي يمكنني قوله؟ في تلك الأيام، كان ذلك الشيخ ينام مبكرًا، ونستلقِي نحن معًا عندها. كانت «دراجا» تتسلل خارج سرير ذلك الشيخ عندما ينام متعبًا من دوار البحر وبعض الحبوب التي تضعها في مياهه.

في تلك الليالي الثلاث الأولى، أخبرتني «دراجا» بثلاث قصص كأنها ثلاثة أحلام. أكانت حقيقة أم لا؟ لا أعلم.. أعرفت منها سبب إلقاء القدر بها على تلك السفينة أم لا؟

سمعت القصة الأولى وكنت أوصلها إلى غرفتها. بعد أن أخبرتني بالقصة وقبل أن تخبرني أننا سنلتقي في اليوم التالي، أمسكت بمقبض الباب، وقبل أن تدخل الغرفة وقفت للحظة مواجهة الباب. انتظرت حدوث أمر من خارج هذا العالم، كما كان يحدث مع «لونا». أدارت «دراجا» رأسها قليلًا بدرجة كافية لأرى عينيها ترغب فيَّ بحذر، وهربت نظرة جديدة من عينيها تخطفني مثل عاصفة غير

متوقعة. هذه أول مرة لم أخفض نظرتي إلى الأرض، لأن نظرتها التقطتني. اللعنة عليها وعليَّ أيضًا. ولكن، قبل تلك النظرة، وأنا أتمشى مع «دراجا» إلى غرفتها، أخبرتني عن قبلتها الأولى، تلك التي حدثت في أثناء لعبها دور الأم في طفولتها مع أصدقائها، الذين لعبوا دور أطفالها وعليهم إطاعتها، يا للمفاجأة! وإذا أصرَّ أحد أصدقائها على لعب دور الأم، كانت تضربهم بعصا على

أصابعهم أو تتشاجر معهم حتى يرحلوا. وأقنعت الآخرين أن يفعلوا ذلك أيضًا. هذا ما أخبرتني به بابتسامة لطيفة كأنها مستعارة من وقت لطيف آخر.

قالت:

- هل تحب قصصي التي أرويها؟ أحب القصص كثيرًا.

أجبتها:

- نعم.

كأنني أقف أمام باب يقودني إلى عالم آخر ومتحير أأدخل أم لا.

بدأت «دراجا» برواية الطريق الذي قادها إلى الزواج من ذلك الشيخ بدلًا من شخص في مثل سنها. أرعبتني القصة وجعلت معدتي تتقلب ونصفي السفلي في الوقت ذاته، كنت ألعب مع الشياطين والملائكة في الوقت ذاته. أرتجف من كل مكان. غرقت في عرقي البارد وهي تسترجع تلك الأحداث. لن أنسى تلك القصة الأولى أبدًا، قاسية جدًّا على شاب من زمان ومكان مختلف، جرت كالآتي:

- في يوم ما، كنت قد كبرتُ قليلًا وعلقتُ في حظيرة في أثناء عاصفة مع «ميركا»، الفتاة التي كانت تتنافس معي لكي تكون الأم عندما كنت ألعب لعبة المنزل مع الأطفال الآخرين في الشارع. قالت «ميركا»:

- هل تريدين أن أريكِ شيئًا ما؟

سألتها:

- ماذا؟

- ولكن إذا أريتكِ عليكِ أن تقسمي ألا تخبري أحدًا.

- أقسم إنني لن أخبر أحدًا.

- أقسمي بحياة أمك.

- أقسم بحياة أمي.

- لا، يجب أن تقسمي بحياة شخص تحبينه أكثر من ذلك. أقسمي بحياة الرجل الذي سيتزوجكِ عندما تكبرين.

- أقسم بحياة زوجي إنني لن أقول شيئًا.

- حسنًا.

وأخذت ترفع عباءتها.

- لديَّ ندبة هنا.

قالتها وهي تشير فوق «عضوها الخاص»:

- وهنا.

قالت وأرتني كل شيء، حتى ما لا يجب أن أراه.

- وهنا بشرتي مختلفة. أصبت بمرض ما وظهرت لديَّ بقع بيضاء. تتحول بشرتي إلى الأبيض في

أماكن ما والبقع تتزايد. لن يقبلني أحدٌ زوجة له عندما أكبر، عندها ستغطي البقع البيضاء جسدي بالكامل كالبقرة.

مددت يدي ولمست الجلد القريب من منطقتها الحساسة، وصرخت كأنها مرعوبة. صرختْ:

- ما الذي تفعلينه؟

حدَّقت إلى جلدها وقلت لها إن البقع إذا انتشرت في جسدها كله عندما تكبر، سآخذها لتعيش معي، وسنكون كالأخوات، ولن يعترض أحد ولا حتى زوجي. عانقتني «ميركا» وملابسها الداخلية عند كعبها وتحرَّك شيء داخلي. تقريبًا كانت تلك اللحظة الذي تخللني الشيطان بها وقبَّلت خدَّها. قلت لها:

- سأكون أختك دائمًا.

وقبّلتها مجددًا. بقيت شفتاي على خدها قريبة من فمها، ودامت القبلة أكثر من القبلة الودية السابقة. دفعتني «ميركا» بعيدًا وقالت:

- لا تقبِّليني أنتِ لست زوجي!

منذ ذلك الوقت، لم أشعر أنني طبيعية بوجودها أبدًا. أردت أن أثبت لها أنها أفضل أصدقائي وانتهزت أي فرصة لتقبيلها. بعد فترة رفضت قبلة الوداع مني، عندها قلت لها إن عليها أن تدعني أقبلها كل يوم وإلا أخبرت الجميع أن لديها بقعًا هناك في الأسفل. بالإضافة إلى أن عليَّ تفقُّد البقع بصورة دورية لأتأكد من وجود بقع جديدة وإلا سأخبر الجميع عن الندبة. أصبحت «ميركا» تتلعثم وهي تتكلم، وتوقفت عن الخروج واللعب. وبعد سنة

أو سنتين عندما كبرت قليلًا، خفت مما كنت أفعله وتراجعت من تلقاء نفسي ولم أخبر أحدًا لا عن البقع ولا القبلات. صليت كل ليلة لكي يتركني الشيطان، كل ليلة، عدَّة سنوات. حتى تزوَّجت «ميركا» في سن صغيرة جدًّا. طلبت من أمها أن تساعدها في الزواج في قرية أخرى، وتزوجت في قرية أخرى. عندما جاؤوا لأخذها، قبَّلتها للمرة الأخيرة وهي مرتدية ملابس زفافها.

أنهت «دراجا» القصة مباشرة قبل وصولنا باب غرفتها. سألتُها:

- لما أخبرتني كل هذا؟

قالت:

- لأنني لم أجد أحدًا يمكنني أن أخبره بهذا من قبل.

سألتني بعد أمسكت بمقبض الباب:

- هل أنت خائف مني؟

عندها علمت أن نظرتي لن تتحول إلى الأرض مجددًا بسبب نظرتها التي استحوذت عليَّ مثل عاصفة، وذهبت إلى الحمام.

***

الراوي



في تلك الليلة، لعب «صاني» بالظلال التي يصنعها الضوء الخفيف المسلَّط على سريره قبل أن ينام. رفع يده نحو الضوء التي شكَّلت عدَّة أشخاص. يسأل أحد الأشخاص: «أين أنا؟»، والثاني يسأل: «ما الذي أفعله؟»، والثالث كان مرتعبًا، والرابع أراد أن ينهض ويغامر نحو المجهول.

القصة الثانية



في الصباح التالي، كانت لديَّ فكرة واحدة باعثة للأمل؛ ليس للأمر علاقة بمدى شعوري الذي كان وما زال يراودني تجاه «لونا»، ولكن الأمر مختلف. أعلم أنه لا يجب عليَّ أن أرى «دراجا» مجددًا، ولكنني أعرف أنني عاجز عن الامتناع عن رؤيتها. بكل بساطة، كنت مشتتًا بين خيارين. روحي تصرخ ولكن عقلي لم يستمع لها. نشأ شجار مع عقلي الخبيث:

- فقط مرة أخرى الليلة. لن يحدث شيء. سأراها الليلة ولن تتكرر. حتى إنني سأخبر «لونا» إذا اضطرني الأمر.

- لا. لن أخبرها.

- ولكن إذا لم أخبرها سأكذب عليها.

- لا أنا لا أكذب عليها. أنا لا أفعل أي شيء خطأ.

- أوه.. بلى أنا أفعل! أنا أقوم بشيء فظيع.

- ولكن لا أستطيع الامتناع عن الذهاب! لم تبُح

بمشكلاتها لأحد من قبل.

- وماذا في الأمر؟ هذه مشكلتها ليست مشكلتي.

- حسنًا لن أذهب.

- ولكنني لا أستطيع ألا أذهب.

- لماذا لا أستطيع ألا أذهب؟

- لأنني لم أرغب في شيء من قبل أكثر من رؤيتها الليلة. ولأنني لم أشعر بكوني على قيد الحياة هكذا من قبل.

هذا ما قلته لنفسي، مرعوب من إجاباتي التي لم أجد بها ما يبرر لي، ويبعدني عن نهر الخطايا، والتي بمنزلة قناة تصبُّ فيها المياه الشريرة..

مضى الوقت الذي كنت أفكِّر به بسرعة، وحل المساء ببطء أبطأ من مشية ذلك الشيخ.

وقفتْ هناك مستقيمة كأنها منتصرة، وأنا أقترب منها كدودة صغيرة.

قلت لها:

- كنت أفكِّر في كلماتكِ طوال اليوم؛ أنكِ لم يكن لديكِ من تتحدثين معه. لِمَ أنا تحديدًا؟

- لا أعلم. ربما لأنك تذكِّرني بشخص كنت أحبه.

قالتها بثقة كأنها ولدت لتثير الأمور كما يجب ولا يجب في الوقت ذاته.

- لِمَ تزوَّجتِ ذلك الشيخ؟

- في البداية زوَّجني أهلي إلى ولد مريض، لكي يستحوذوا على مهري ومات بعد سنتين. كنت أمسح كل قطرة دماء يبصقها. كان يبلل الفراش.

أنظف بوله وبرازه طوال اليوم، ودماءه من السرير الذي كنت أنام عليه ليلًا. ومباشرة قبل أن يموت، قبل أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، سحبني من شعري بيده الهزيلة ليقرِّبني منه ويقبِّلني وبدأ في السعال. أمسك بشعري كأنه استجمع بعض قواه، وضيَّق قبضته عليَّ وبصق دمًا على وجهي. وبدأ يتلوى في السرير من الألم وشعري في يده.. ضربته بعدها على صدره بقبضتي لكي يتركني. كان يتنفس بصعوبة، وفجأة، ضعفت قبضته ونظر إلى عينيَّ مباشرة وتنهَّد مرة أخيرة. ادَّعى والداه أنني أرفض زيارة قبره كل يوم وأنني المُلامة على موته، وأنني لم أهتم به كما يجب، لذلك أرسلوني إلى والديَّ. وبعد شهرين أو ثلاثة، اكتشفت أنني حامل. أخذتني أمي إلى امرأة ما في البلدة. لا أعلم ما الذي فعلته بي، ولكنها أخرجت شيئًا مني. رأيت شيئًا شبيهًا بكتلة اللحم بطرف عينيَّ. دون عين، دون فم، دون أذن. قطعة لحم غير محددة الشكل. لم أكن بخير فترة طويلة بعدها. ولم يرغب أحد آخر بي.

قالت لي كل هذا دفعة واحدة.

لم أعد خائفًا من ملاقاة نظرتها. قبل أن تغادر، سألتني:

- إلى أي مدينة ستذهب؟

- إلى «نيويورك».

- نحن أيضًا.

قالتها وبين شفتيها شهوات لا تعدُّ ولا تحصى، للتعويض عن شبابها الضائع.

الراوي



كل شيء كما يبدو، ولا شيء كما يبدو. الحقيقة واحدة ومتعددة.

القصة الثالثة



في الليلة الثالثة، ظهرت وهي سكرانة تقريبًا. وضع الرجل بعض «الراكيا» في الغرفة والآن هي مترنحة.

قالت:

- أتعلم أن كل ما أخبرتك به بالأمس كان غير حقيقي؟ الرجل الذي مات كان أبي والمرأة هي أمي، وتزوجت مرة أخرى لاحقًا، وقصة الطفل الذي لم يولد غير حقيقية. كل شيء مزيف.

سألت:

- لماذا؟

- لا أعلم، أحب تأليف الأمور. دائمًا ما كنت أستمتع بتأليفها، والعيش في عوالم خيالية. حتى عندما كنت طفلة، كانت أمي تقول لي: «أنتِ لم تكبري أبدًا، ما زلتِ طفلة» أو أشياء مثل «لقد جننتِ». الحقيقة أنه بعد زواج «ميركا»، رأيت أحد الجيران يمارس العادة السرية تحت شجرة في الحقل.

أنت لا تمانع إخباري لك بهذه الأمور، أليس كذلك؟ أنا أثق بك، لا أعلم لماذا. أنا إنسانة على الرغم من كل شيء. أريد

التحدث عن الأمور التي تشكِّل حملًا عليَّ. يمكنك أن تحكم عليَّ لاحقًا إذا أردت. بعد عدَّة أيام، رأيت ذلك الجار مرة أخرى. شاب في مثل عمري. لم أبتعد. راقبت ما كان يفعله في حالة من الذهول. ولكن تلك المرة رآني هو. ارتبك وضيَّق حزام خصره وبعد ذلك نشر الأكاذيب عني في القرية. قال إنني كنت أراقبه وهو يتبوَّل. قيدني أبي في شجرة واستدعى كل من في القرية ليأتوا ويبصقوا عليَّ. بصقوا عليَّ حتى آخر واحد منهم، في منتصف اليوم والشمس لا تزال ساطعة. «فاجرة»، «شيطانة»، «عاهرة». حتى الأطفال شتموني بأبشع الألفاظ. كانوا يتحدون بعضهم ليروا مَن يمكنه البصق عليَّ من مسافة أبعد. وبدؤوا يقيدونني في البيت أيضًا لكيلا أخرج. كنت حديث القرى المجاورة. لم أملك أي صديق أو شخص لأتحدث معه.

لهذا السبب اضطررت إلى الزواج من ذلك الشيخ. كان الوضع مختلفًا في بلجراد وفيينا. قرأت العديد من الكتب. أتعلم أنه مسموح للنساء بالذهاب إلى المدرسة في أمريكا؟ يمكنهنَّ دراسة الطب حتى! سأصبح طبيبة. وجدت كتابًا عن الأطباء. أحمله معي دائمًا. إذا لم يسمح لي ذلك الشيخ بالدراسة، سأهرب. البلد كبير ولن يعثر عليَّ أحد أبدًا. هل ستساعدني إذا احتجت إلى المساعدة؟

قلت:

- أنا ذاهب إلى أمريكا لأتزوج من فتاة.

تغيَّرت نظرة «دراجا» للحظة وبعد ذلك كأنها

أعادت دور الأم من لعبة طفولتها إلى الحياة وقالت بجدية:

- ستساعدني!

***

المقابلة الرابعة



بعد ذلك، جرى كل شيء كما في ألعاب طفولتها. عدَّة ليالٍ، قادتني حول السفينة، مشينا وتجولنا واستكشفنا، وراقبنا النجوم. ضحكنا وفعلنا كل ما أرادت فعله. كنت مرعوبًا طوال الوقت. كلما حاولتْ إغوائي أو لمسي حتى ولو دون قصد، كنت أخبرها عن «لونا». ليس كل شيء، هناك أشياء ألفتها. لم أخبرها عن الغابة بل أخبرتها أنهم رفضوا تزويجي «لونا» لأننا فقراء. أخبرتها أنها كانت أجمل فتاة في البلدة وأضفت إلى ذلك أنها لم تحب غيري حتى عندما كنَّا أطفالًا.

حتى إنني أخبرتها عن تلك الكدمة فوق عين «لونا». عندما قلت لها إنني أخبرت «لونا»: «سأضرب والدكِ»، وعندما ذكرت دموعنا المشتركة، قاطعتني وقالت:

- أتسمح لي في أن أقول شيئًا؟

- ماذا؟

قالت:

- لديَّ ندبة.

ودون أن تنتظر ردًّا مني في ظل سطح السفينة خلف الحبال، أنزلت تنورتها وأرتني ندبتها. تمامًا فوق عضوها. في تلك اللحظة اندمجت السماء والأرض أمامي. انكمشت على نفسي. وضعفت قدماي وجلست ببطء كرجلٍ منتشٍ.

قالت:

- المسني.

اتجهت يداي خارج إرادتها إلى هناك، فوق ثنيات الجلد الناعم.

قالت:

- سأعطيك كل ما يمكن أن تعطيه المرأة لرجلٍ إذا ساعدتني.

خذلتني الكلمات وتبخَّرت أفكاري تاركة مساحة لشيء جديد، شيء لم أكن مستعدًّا له.

قلت لها:

- سيعاقبنا الرب.

ولكن نظرتي ظلَّت مثبتة على ندبتها الصغيرة كما حدَّقت هي إلى صديقتها «ميركا».

سألتُ:

- أأنتِ «ميركا»؟

قالت وجلدها يعكس ضوء القمر:

- لا يهم، حتى إن كنت أنا. لن يعاقبنا الرب لأننا

سنتزوج عندما نصل إلى أمريكا. اعتاد البيك العثماني النوم مع المحظيات كل ليلة. يُقال أيضًا إن البيك كان يرفض الأحرار ويقدِّمهنَّ للضباط، والوزراء، والحرس، والبشوات، وحكَّام المقاطعات. ربما حتى القادة، الجنود غير النظاميين، ومن منهم برتبة العريف، الرقباء. أعاقبهم الرب؟ لا. لقد أكلوا الحلوى التركية وغيرها من الأطايب طوال حياتهم.

- أنا ذاهب إلى أمريكا لكي أجني المال الكافي لأتزوج من فتاة.

- إذًا لماذا تحدِّق إليَّ هكذا؟

مددت يديَّ رغمًا عني نحوها مرةً أخرى. تنهدتُ بعمق وشعرتُ ببلل في سروالي دون أن يلمسني أحد.

***

المقابلة الخامسة



قالت في الليلة السادسة:

- لديَّ خطة! يحتفظ ذلك الشيخ بماله في ملابسه الداخلية، لقد قمت بحياكة جيب له هناك بنفسي! سأسرق المال ونحن نغيِّر ملابسنا قبل النوم. لن يعثر عليَّ أبدًا؛ أمريكا مكان كبير. سنهرب معًا. وسنعيش بذلك المال عامًا كاملًا.

- هل أنتِ مجنونة؟

- لست مجنونة. أنا فقط أريد أن أعيش! لما قد يحتاج إلى المال؟ أو يحتاج إليَّ؟ فقط لكي يتباهى بي. لدى أولاده المال. وسيموت قريبًا، لن يعيش إلى الأبد. على أي حال، من الأفضل له أن يموت لكيلا يعاني. لقد ذهب عقله بالكامل تقريبًا. إذا أردت، يمكننا إلقاؤه في المحيط. لن يعرف أحد.

- أنتِ مجنونة.

- لقد قلت هذا لي بالفعل. فكِّر في الأمر الليلة. سأنتظر جوابك غدًا. أتمنى ألا تكون ضعيفًا.

قالت هذا وغادرت.

في تلك الليلة، وبعين واحدة، رأيت كيف ستكون حياتي مع «دراجا» في العام التالي في أمريكا. وبالعين الأخرى، رأيت نفسي أعمل لكي أجني المال وأتزوج «لونا».

***

الراوي



يقول الناس: «أولئك الذين يختبرون حظهم يدفعون ثمن ذلك». ولكنهم يقولون أيضًا إن ذلك المثل على لسان من لا يختبرون حظهم ومن لا يدفعون أي ثمن.

الليلة الأخيرة «صاني»



بعد تلك الليلة، لم نناقش ما الذي سيحدث عندما ننزل من على ظهر السفينة. أصبحت أفكِّر في «لونا» أقل وأقل. في تلك الليالي القليلة، وقبل النوم، سألت نفسي كما كنت أفعل في طفولتي: «ماذا لو لم أعد إلى «لونا»؟»، عندها كررت لنفسي عدَّة مرَّات: «سأعود. سأعود...».

في المساء العاشر، تأخرت مقابلتنا. وبعد المشي حول السفينة بأكلمها، قدتها إلى مؤخرة السفينة وأنا أشير إلى النجوم وأقول أسماءها، تلك التي لم أستطع مراقبتها مع «لونا» لأننا حظينا بوقتنا الخاص بالنهار ولكن مع «دراجا» اقتصر وقتنا على الليل.

بينما كنَّا نراقب السماء، شعرت بشيء صلب يرتطم برأسي. سقطت مشوشًا وحاولت الوقوف، وبرؤية ضبابية، رأيت «دراجا» تحاول أخذ العصا من يد ذلك الشيخ. حاول جذبها وجذبتها فجذبها مرَّة

أخرى ثم جذبتها. وفجأة، أمسكت «دراجا» بالعكاز ورمته برفق وسقط الرجل على سطح السفينة. بعدها أتت «دراجا» وساعدتني في الوقوف.

قالت:

- خذ أمواله!

نظرت إلى ذلك الشيخ على الأرض وإلى خط الدماء المنساب من رأسه. فتحتُ سحَّابه. كان بنطاله مبللًا بالكامل. وضعت يدي داخل سرواله الداخلي المبلل الغارق في البول كأنه تبوَّل عن قصد على المال. أخذت حفنة من الأوراق الممزقة. لم يبقَ سوى ورقتين أو ثلاث ورقات صالحة للاستخدام.

قال ذلك الشيخ وهو يضحك كالمجنون ويلفظ الدماء من فمه:

- لقد مزَّقت وتبوَّلت على الأموال.

وقفت مرَّة أخرى ويدي مبللة من البول ونظرت في عينيه التي كانت تضحك كالمجانين. ورأيت بداخلهما جنونًا يهدد بالخروج مني أيضًا.

قلت له:

- سأتبول عليك.

عدت إلى داخل السفينة وحاولت «دراجا» أن تتبعني ولكنني صرخت بها ألا تتبعني وإلا رميتها في المحيط.

قالت:

- أيها الضعيف! إذا رأيتك مجددًا سأقتلك أيها المقدوني الغبي.

وعادت إلى ذلك الشيخ. تلك الليلة حلمت حلمًا آخر. موقد في منزل أحدهم، غالبًا منزلي أنا و»لونا»، احترق والتهمت النار كل شيء، بكل سهولة. استمر ذلك الحلم فترة قصيرة.

استيقظت متعبًا ولكنني كنت مصرًّا على تعرُّف ذاتي لكي أعود إلى «لونا» كرجل جديد. على الرغم من أنها لن ترغب في رجل لا تعرفه، ولكنها ترغب في ذلك الشاب المألوف من الشارع المجاور قرب الغابة. عندها سمعت صوت صرير كأن أسد بحر وضع السفينة بين فكَّيه. استيقظ الجميع وسمعنا من على سطح السفينة يصرخون أن السفينة تغرق.

***

الراوي



تأتي الأمطار القذرة من بعيد، وتنساب بسهولة فوق سطح مذهب مغيرةً ماهيته. يُظهرون عكس ماهيتهم، يهدئونك لتعتقد أنهم أصدقاؤك، ويخفون ابتساماتهم عديمة الأسنان وكل الفظاعة التي تتخللها.

لدى الجميع مكان مخصص لهم في المنزل. وهناك من يفتحون أبوابهم على مصراعيها في انتظارهم.

صاني



ليس من الضروري أن أحكي بقية تلك القصة. ولا لكيفية تحطُّم السفينة تأثير في القصة ولكن المهم كيف اقشعر بدني وروحي من الماء. فيما يتعلق بتلك الفترة الحرجة في حياتي، لا يهم أيضًا معرفة ما إذا نجت «دراجا» وذلك الشيخ، أو أن ذلك الشيخ أعطاني عكازه وطلب مني أخذ «دراجا» إلى قارب النجاة وأن أنقذ نفسي، وفي الوقت نفسه حذَّرني وطلب مني أن أكون حذرًا لأنني إذا جوَّعت الثعبان عدَّة أيام سيعضني مباشرة وسينتشر سمُّه بسهولة في جسدي. وليس مهمًّا أيضًا كيفية وصولنا إلى أمريكا أو العذاب الذي مررت به ولا حتى إنني و»دراجا» أبقينا أنفسنا دافئين ببضع بطانيات على قارب النجاة وأنقذنا حياتنا. ولا يهم أنني، أنا، بصرف النظر عن «دراجا» التي لا تهم نجاتها في هذه القصة بعد الآن، كنت مصدومًا بمصيري. في تلك اللحظات المجنونة، تساءلت أكانت خيانتي سبب كل ما حدث؟ الفكرة التي ترددت في ذهني

أعلى حتى من صوت صرير معدن السفينة وهي تتمزق.

المهم الآن هو أن هناك اثنتين تشغلان تفكيري بدلًا من واحدة، وأنهما تتصارعان بداخلي. إحداهن تشتكي وتئن، والأخرى تسحبني نحوها. بمجرد أن أغمض عينيَّ، تظهران كلاهما أمامي. كانت «دراجا» دائمًا الأقوى، وتُطيح دائمًا بـ»لونا». عندها أفتح عينيَّ وأحاول التفكير في «لونا» فقط ولكن عندها، «بوووم»، تظهر «دراجا» مجددًا، غير مدعوة، وتشغل حيز تفكيره بالكامل. كانت

تنهداتها تثيره في حين تأوه «لونا» يشبه تأوه القطة الضائعة. كانت صدورهن مكشوفة، ولكن بينما غمر الضوء «دراجا» بالكامل، كانت «لونا» دائمًا في ظلها. أغمضت عينيَّ جيدًا ولكن دون جدوى. كانت إحداهما جالسة على غصن شجرة، والأخرى جالسة خلفها بعيدًا بين الأغصان الجافة مثل ملائكة «الشيروبيم» الصغيرة.. يا إلهي! ما هو المسار الذي يجب عليَّ أن أسلكه الآن؟ هكذا قلت لنفسي، وانتظرت عودة «لونا». حتى إنني انتظرت أن تشكِّل مساحة لها بداخلي. تكون لها وحدها لتنام في قلب الشخص الذي كان يتوق إليها في مكانٍ بعيد عن هنا.

***

الراوي



من الصعب أن تثق بأي شخص في هذا العالم الواسع. كيف يمكنك ذلك وحتى أولئك، الذين قدَّمت لهم أكثر مما قدَّمت لنفسك، يعرفون كيف يؤذونك أكثر من غيرهم في بعض الأحيان؟ حتى أولئك الذين تراهم كل يوم، أولئك الذين تشاركهم سريرك، لديهم ما يؤهلهم لخداعك. وأنت تراهم كل يوم. تنظر إليهم في أعينهم. فقط ما الذي يدور بداخلهم؟

صاني



كنت شخصًا آخر عندما وصلت إلى أمريكا؛ تقدمت في السن، وأثقلت سحابة من الثقل كاهلنا. خططت للعمل فترة قصيرة كعامل باليومية، حتى لا أرى ضوء النهار، تمامًا كما في المنزل حيث بدا النهار كالليل في تلك الحقول الجافة. وبعدها أعيد روحي إلى مكانها الصحيح، إلى وطني حيث كل شيء في مكانه الصحيح. ولكن نادرًا ما تجري الأمور بسلاسة في حياة الشخص. في البداية التقيت «ميتسي». لقد سقط في البحر، وقال إنه رأى نفسه من الأعلى، كما لو أن جزءًا منه قد خرج من المياه الباردة «ليدفئ نفسه»، عندها أمسكه شخص ما وأخرجه من الماء، لذلك كان محظوظًا لأنه لم يبقَ في المياه الباردة إلى الأبد. ثم ذهبنا أنا و»ميتسي» للقاء بعض المقدونيين الذين كانت أيديهم أكثر سوادًا من تلك التي كتبت عنها في البداية. على الرغم من أنهم كانوا في أرض الميعاد، فإن أيديهم السوداء ظهرت عليها علامات شرب الحليب والعسل، تمامًا كما قيل

لنا قبل مغادرتنا. أخبرونا على الفور أنهم يستطيعون مساعدتنا إذا أردنا من يضعنا على بداية الطريق، وبقليل من الحظ والجهد، سنتمكن من العودة إلى الوطن محققين أحلامنا في أقل من أربع أو خمس سنوات، ولكنه بدا لي وقتًا طويلًا، لكن بالنسبة إلى «ميتسي» بدا قصيرًا.

بصقت في يدي وقلت إنني سأسلم جسدي إلى هذا البلد، ليفعل بجسدي ما يريد، طالما يمكنني العودة إلى المنزل في النهاية. في البداية عشت مع مقدونيين آخرين. كانوا ينادون بعضهم بعضًا بـ»الأخ» لأنهم كانوا مواطنين من البلد ذاته. لم يختلطوا مع الأمريكيين، فقط مع بعضهم بعضًا. «أين كنت مؤخرًا يا أخي؟»، «اللعنة على الادخار يا أخي»، «تبدو منهكًا يا أخي!» هذا ما قالوه طوال الوقت. وكانوا جميعًا يتصرفون كما لو أنهم تعلَّموا كل شيء في الحياة بالفعل، ويخاطبوننا، نحن الوافدين الجدد، كما لو كنَّا صغارًا. كأننا لا نعرف شيئًا وأنهم يعرفون كل شيء. وهذا ما قالوه لنا طوال الوقت: «حسنًا الآن انتظر، أنت لا تعرف أي شيء، ولم ترَ أي شيء بعد».

هكذا استقبلنا «بوجدان»، أحد أقارب «ميتسي». كان لقبه «ووزي». شرب زجاجة ويسكي بأكملها في اللحظة التي جلس فيها على الطاولة، شاعرًا بالحسرة لأن «الراكيا» التي أرسلتها زوجته مع «ميتسي» غرقت في البحر.

- ربما يكون خيرًا. مَن يدري؟ ربما أضافت السيدة

شيئًا ما في الزجاجة لتسممنا مثل الفئران. ها ها ها.

ضحك مثل شخص مضطرب عقليًّا. أخذ رشفة أكبر من الزجاجة، وبدأ في الحديث ولم يتوقف إلا عندما نام. استمع له «ميتسي» بفم نصف مفتوح. ظننت أن فكَّه سيسقط على الأرض من الإثارة.

- أيها الطفل! فقط انتظر حتى تقابل العاهرات! اسمع، هناك نساء هنا، الكثير منهن، ويمكنك الحصول عليهن مقابل المال. هل فهمتني؟ إنهن هناك في ذلك النوع من الأماكن، أنت صغير جدًّا، ولا تفهم شيئًا، المكان هنا مختلف، هنا يمكنك رؤيتهم عراة. بحق العذراء يا «صاني»، استمع لي، ستتحمس كثيرًا. اسمعني، أنت شاب لم ترَ شيئًا بعد، لكن دعني أخبرك، لا تخف منهن. قدِّم لهن المال فقط، هل تفهمني؟ وإذا كنت عاجزًا عن فعل أي شيء، قل لها وستساعدك. إنهن يعرفن كل شيء. اللعنة، إنهن متخصصات. هي هي هي.

هذا ما قاله لنا «ووزي».

قالوا له:

- هيه «ووزي»، أكمل حديثك. أخبره لماذا نطلق عليك ذلك الاسم حتى نضحك قليلًا.

- أوه سئمت من هذه القصة! هذا كل ما تريد سماعه، قد تنسد أذناك من كثرة سماعها. حسنًا اسمع، جرى الأمر على هذا النحو؛ عندما وصلت إلى هنا أول مرة، يا إلهي! أخذوني إلى ذلك المكان، كنت في مثل عمرك تقريبًا، أو أصغر. والآن، اسمع، استمع جيدًا. عندما رأيتها، شعرت بدوار وفقدت وعيي

على الفور، هي هي هي. فورًا! اسمع، إذا فقدت الوعي، لا تقلق. خذني أنا على سبيل المثال، أنا مثل الجبل. لا أحد في العمل يمكنه التفوق عليَّ، اللعنة عليهم وعلى مؤخراتهم الكسولة، هل تفهمني؟

أكمل «بوجدان» ولم يتوقف عن الحديث.

كان مثل جدة عجوز. أنهى للتو حديثه عن «بطولاته»، لكنني لم أسمعه أبدًا يقول أي شيء جيد عن الوطن ولا كيف كان.. أو على الأقل لم أره يُخرج صورة لأطفاله ليتأملها أحيانًا قبل الذهاب إلى الفراش.

على أي حال، في وقت مبكر من الليلة الثانية، أخذ «ميتسي» إلى ذلك المكان، بأموال اقترضها. لم يفقد «ميتسي» وعيه، ولكن عندما عاد، بدا كأنه في حالة من الذهول. ظلت ابتسامة خائفة عالقة على شفتيه طوال الوقت، وكأن المرأة التي كانت هناك قد أخذت روحه.

- الآن وقد وضعت قضيبك في أمريكية يا «ميتسي»، أيها الوحش الكاسر. أنت الآن تعرف كيف هو الحال هنا في أمريكا، ليس كما كان في الوطن؛ هذه الحياة مختلفة، الحياة هناك بائسة. سترى كيف سينتهي بك الأمر. أنت وصديقك هذا هنا الذي لا يتحدَّث كثيرًا.

قال الآخرون لـ»ميتسي»، الذي بدا أكثر سعادة مني:

- سترى كيف ينتهي بك الأمر بالبقاء هنا مدة عشرة أو خمسة عشر عامًا.

لم أذهب إلى أي من تلك الأماكن. أبدًا. لكن لهذا السبب اتجهت إلى البارات. لم أذهب كثيرًا في البداية، لكنني أخبرت نفسي أنني مثل ناقل السرعة في السيارة، وأن جسمي يحتاج إلى الزيت في بعض الأحيان وإلا فإنه سيحدث صريرًا ويتعطل. لذلك ذهبت مع المقدونيين الآخرين إلى الأماكن التي يقدمون فيها المشروبات الكحولية التي تبدو مثل البول، بعيدة تمامًا عن «الراكيا». ليست ملوَّنة صناعيًّا ولكنها تكتسب لونها الذهبي وتُخمَّر في براميل مصنوعة من البلوط تُحفظ في أقبية مثبتة محاطة بأطواق حديدية لتثبيتها. وهناك، مرة أخرى، تعرضت لصدمة. تمامًا كما كان يحدث كل يوم في تلك البيئة الجديدة بالنسبة إليَّ حيث لا يمكنك أبدًا معرفة من كان يأكل، ومن يشرب، أو من يدفع.

مرَّت مجموعة من النساء اللاتي كن يتحدثن بلغة غير مفهومة ورأيت بينهن «دراجا».

كرر «ووزي»:

- يا إلهي! القِ نظرة. هل ترى الآن؟ قلت لكم، هنا كل شيء مختلف. هل ترى، هل ترى؟

قال وهو يحدق.

بصرف النظر عن تلك النزهات المتكررة إلى البارات، لم أختلط كثيرًا مع الآخرين. وعندما كنت لا أعمل، كنت أنام أغلب الوقت أو أتجول في المدينة، وأتعجب من الحشود الصاخبة.

كنت أتأثر بالأصوات الوفيرة هنا تمامًا مثل الصمت الذي كان لدينا في المنزل، الذي كان بالنسبة إليَّ

أجمل صوت في ذلك الوقت. مرَّ شهران، ثم نصف عام والذي بدا لي أنه أطول من ذلك، وأنا أحاول كتابته في الرسائل التي كتبتها إلى «لونا»، محاولًا محو اسم «دراجا» الذي اختلط بالسطور، وإعادة ترتيبه، وتشتيته، ومنحه لونًا مختلفًا. اللعنة عليها وعليَّ أيضًا. في تلك الرسائل،

لم أخبر «لونا» بأي شيء عن «دراجا» أو السفينة أو المصاعب التي أبعدتني عنها. وأنا أعلم أنها ترقد في الفراش كل ليلة متمسكة بزاوية البطانية بكلتا يديها. تُمسكها بين يديها، بأصابعها الطويلة النحيلة، وتقرِّبها إلى ثديها وتقبض بعدها على قلبها، وتحدِّق في الأفق المظلم، بالإضافة إلى ذلك الشعور اللعين ولكن المألوف بالسعادة التي لا تخلو من الحزن، بسبب الاعتقاد بأنني ملكها إلى الأبد.. آه، «لونا» المسكينة.. لكنها لا تفعل ذلك، لا وقتها ولا مستقبلًا عندما ستثور الشمس مع القمر.

كنت متأكدًا أن «لونا» قرأت رسائلي في الوقت نفسه الذي أنهيها فيه. وعندما أمسكتها، أصبحت جزءًا منها، وأصبح وجهها أقل اضطرابًا مثل جميع المنتظرين. كان ذلك عزائي الذي ساعدني في التصالح مع مصيري، لإعفائي إلى حد ما من مسؤولية خطئي الذي وقعت فيه كأنني تعثَّرت على أرض مستوية. في ذلك النصف من العام، في تلك الفترة القصيرة جدًّا، بدأت تدريجيًا أفهم تلك اللغة وأن أتحدث بها. وسرعان ما تعلمت أشياء أخرى كثيرة عن عملي أيضًا. قال رؤسائي إنني كنت شابًّا ماهرًا وإنني سأترقَّى سريعًا. كما كانت والدتي تقول

إنني أسرع من تدفق المياه وأكثر حدة من المجرفة. بينما كنت أتعلم اللغة، واجهتني العديد من الأمور الجديدة، لأنني حرصت على إبقاء ذهني منفتحًا أمام التجارب الجديدة على عكس «ميتسي» الذي ادعى طوال الوقت أنه يشعر برغبة في البكاء لأنه أراد أن يشرب «الراكيا» المنزلية وأنه يحلم دائمًا بسريره الدافئ في منزله. ولكن في الواقع كان عقله واقعًا تحت تأثير الويسكي والنساء الرخيصات. بدأت أشعر بتغير تدريجي في نفسي، ولكنني بطبيعة الحال لم أعارضه، على الرغم من أنني لم أكن متأكدًا إلى أين سيقودني ذلك. مع هذا الشعور بالانفتاح، أصبحت زياراتي إلى البارات، حيث كنت أخاطب النساء باللغة العامية، أكثر فأكثر. ثم ثبتت صحة كلام جدتي تمامًا مثل كل شيء قالته؛ الوقت أفضل علاج. ومرَّت أيام كاملة دون أن أفكِّر في «دراجا».

هنا قابلت حبي الجديد، إذا جاز التعبير. ليست امرأة. وما زلت أعتبرها أكثر مثالية وكمالًا من أي شيء آخر، إذا جاز للمرء أن يستخدم مثل هذا التعبير. حدث الأمر تدريجيًا وببطء جعل جسدي

يرتجف، وقدَّمه إلى إيقاعات ومتع جديدة. وعندما أستمع لتلك الإيقاعات، كانت تثير فيَّ الشعور ذاته الذي كان يراودني عندما كانت «لونا» - وهي تغسل الملابس عند النهر - تعرض صدرها جزئيًا لي، على حين كنت مختبئًا بعناية لأراقبها من بعيد. لم أتمكن أبدًا من معرفة ما إذا كانت تعرف أنني كنت أحدِّق إليها وتفعل ذلك عن عمد أو إذا كانت

مجرد مصادفة، ولكنني علمت لاحقًا أنها ليست كذلك. خفقان القلب الذي سببته «لونا» (و»دراجا» أيضًا..) لقد شعرت بهذا هنا أيضًا، ولكنها بالطبع من نوع مختلف ومن مصدر مختلف. ظهر حبي الجديد أول مرة وأنا أنقر الأرض بقدميَّ في لحظات محددة وعلى فترات منتظمة. كان هذا الحب يفوق استيعاب «ميتسي»، الذي تآكل عقله بسبب الويسكي، وكانت النساء تنهب الأموال التي يعتمد عليها أطفاله الجائعون في مكان بعيد عن هنا.

«هي»، سيدتي الحقيقية، الخطرة، المسالمة، والتي يمكنها، بالمعنى الحقيقي للكلمة، أن تسحر أولئك الذين لديهم حتى أدنى اهتمام بالنغمات، ويرغبون في استغلال نبرة الأصوات الخادعة، وتسليم أنفسهم. بالطبع كانت هي؛ «الموسيقى»!

نعم، كان من دواعي سروري أنني لم أذهب على الفور للبحث عن جسد جديد، ومع ذلك وجدت السعادة التي جعلتني أنجو من هذا الموقف البائس. حتى في ذلك الوقت، لم أكن قد رأيت وسمعت كبار السن يعزفون في حفلات الزفاف في وسط المدينة، وركبهم منحنية إلى أسفل، ويجلسون فوق الطبول بينما كانت مناديل الزفاف تتطاير في الهواء، وصوت «الزورلا» يخرج من بين شواربهم المصفرَّة من التبغ الرخيص وهم يرقصون «التيشكوتو»، تلك الرقصة المقدسة، والتي تهز السماء حتى تخترق قمم الجبال. كما فعل صراخ المقدونيين، الذين كانوا يصيحون كالحمير عندما كنا نشرب جميعًا ليلًا.

لكن كان هذا شيئًا جديدًا تمامًا. الموسيقى الجديدة في ذلك الوقت، هزت جسدي ومنحتني حرية جديدة. أنا، «صاني»، المنكوب حالفني الحظ أو سوء الحظ، وجئت إلى أمريكا في الوقت الذي عقب ظهور موسيقى «الراجتايم» بعد عشر سنوات من ظهور موسيقى «الجاز» أول مرة في عام ١٩١٣. تخللتني موسيقى «البلوز» وحملتني بالطريقة التي يحمل بها الأشقاء بعضهم عبر النهر

دون أن تصيبهم المياه، ودون أن تتبلل أقدامهم. دفعتني الموسيقى مثل الريح التي تمزق تاج شجرة «الزيزفون» في أواخر الخريف وتدوِّرها في الهواء بعض الوقت، وتضعها بأمان على الأرض في مكانها الجديد إلى الأبد.

الـراو ي



مرة أخرى في الحانة...

- إذن «ميتري» سمعت أنك أخبرت الناس أن ابنك ذهب إلى أمريكا ليعود بالمال الكافي ليتزوج ابنتي، أليس كذلك؟ فقط لكي تعرف، سألقي بهذا المال في المرحاض، بدلًا من تسليم ابنتي إلى ابنك. أفهمت ذلك؟

- «ماندزا»، أخبر هذا الرجل أن يتوقف عن الحديث وإلا سأضربه.

- «بيتس»، تعالَ الآن، وتوقف عن الصراخ. كل ما تفعله عندما تأتي إلى هنا هو الشجار.

- «ميتري»، انظر إليَّ عندما أتحدث إليك.

- «ماندزا»، قل لهذا الرجل أن يتوقف عن قول ما يثير الغثيان.

- «بيتس» بحقك، أوقف كل هذا الصراخ بحق الجحيم. اذهبا إلى المنزل واصرخا كما تشاءان. هل

أتيت إلى منزلك لأصرخ من قبل؟

- «ميتري»، يبدو أنك لا تعرف مَن الذي تعبث معه. لا تقول مجددًا: «أخبره بهذا يا ماندزا، أخبره بكذا يا ماندزا». إذا كنت رجلًا حقيقيًّا، قم واثبت ذلك بنفسك.

- «ماندزا»...

- لِمَ تنطق باسمي طوال الوقت؟ دائمًا ما تقول اسمي في منتصف أي حوار. استمر إذن، تفضَّل وقله. اللعنة على اسمي! هل أنا دائمًا المذنب هنا؟ أتمنى أن تسقط بيوتكما فوق رؤوسكما أيها الفلاحان اللعينان!

- حسنًا، ليس لأنك شخص مهم يا «ماندزا». أنت مجرَّد هراء. أنا فقط أطلب منك كأس «راكيا» أخرى، وأن تتخلص من هذه الذبابة التي تدور حول رأسي هنا، لا أكثر ولا أقل. هيا، أحضر لنا واحدة قبل أن أضربك أيضًا.

- «ميتري» أنت خائف يا ابن العاهرة. حسنًا اجلس هناك ودعني أرى كم من الوقت ستبقى هناك.

- هلا توقفتما عن كل هذا الهراء؟ يا إلهي كما لو أننا أصبحنا مجموعة من الذئاب ننهش حناجر بعضنا بعضًا. «ميتري»، لا تنهض، اسمعني، ابقَ مكانك.

- لا تقلق يا «ماندزا». لن أحطِّم المكان. هيا، أعطنا بعض «الراكيا». يمكنني الجلوس مع الذباب.

- يمكنك، ولكن دعنا نرى إلى متى. سآتي لأعثر عليك يومًا ما. وأنت أيضًا، «ماندزا» سأقتلك يومًا ما

كما تعلم.

- وأصلح بابك. لا يمكنك حتى فتحه أو إغلاقه. هاك أغلقه بنفسك!

***

- اللعنة، أنا حال بابي ليس أفضل من باب «ماندزا». باب سخيف! «لونا»، يا «لونا»، هل أنتِ هنا؟

- نعم أبي.

- سأقتلكِ، سأقتلكِ! لقد أصبحتُ أضحوكة المدينة بأكملها بسببكِ. صبِي لي بعض «الراكيا»، اللعنة عليكِ.

- حسنًا يا أبي.

- سأزوجكِ في مكان ما، بعيد جدًّا. سأسلمكِ لبعض البائسين حتى ينكسر ظهركِ من العمل في الحقول.

- حسنًا يا أبي.

- وتوقفي عن قول «حسنًا يا أبي»، اغربي عن وجهي أيتها البذرة السيئة. وتوقفي عن البكاء قبل أن أضربكِ. هل رأيتِ والدتكِ تبكي من قبل؟ هل تعتقدين أن الأمر أسهل عليها؟ ها؟ هيا، تجاوزي الأمر وتوقفي عن البكاء. لا انتظري! الليلة ستنامين بالخارج في الحظيرة. اغربي عن وجهي.

- حسنًا يا أبي.

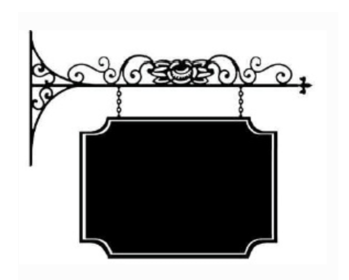
***

الـراو ي



تنحسر الفصول وتتلاشى بالفعل، وتكشف الحجاب عن قوى جديدة للطبيعة. في ذلك الوقت، لم يكن لدى «صاني» أي فكرة أن آراءه الجديدة كانت تزرع بذور المستقبل بينه وبين «لونا»، الفتاة التي تملك قوة رؤية ما لا يمكن رؤيته، ولكنها لن ترى أبدًا دموع ملكة النحل، ليس لأنها لا تملك القدرة على فعل ذلك، ولكن لأن «صاني» لن يساعدها.

صاني



في تلك السنة الأولى، كنت أتنقل بين العمل الجاد والبارات المليئة بالدخان والضحك. لقد فعلت ذلك باللهفة نفسها التي يذكرها الناس من حيث أتيت بـ»يوم الحساب«. ذهبت للاستمتاع ولتجربة متعتي الجديدة؛ وحاولت أن أحصِّن نفسي ضد النساء اللواتي نظرن إليَّ بعيون مختلفة، وكذلك أولئك اللواتي نظرت إليهن بعيون مختلفة. ولكن، حدث كل شيء في الوقت المناسب..

بعد عام ونصف، بدأت صداقتي مع «الفيلسوف»، الذي كان يبلغ من العمر نحو أربعين عامًا، والذي جاء إلى هنا من ألمانيا منذ فترة طويلة. اقترب مني وأنا جالس على كرسي البار، وقال:

- لديَّ زجاجتان من النبيذ هنا: واحدة لي، والأخرى لأحزن رجل في العالم. هل ستكون أنت، بأي فرصة؟

لم يذهلني أبدًا. لقد رأيت بالفعل أن أمريكا كانت مليئة بكل أنواع الحماقات - كما كانت جدتي ستقول - وتعلمت تجنبها. لكن عرض «الفيلسوف»

كان مختلفًا عن كل ما تلقيته حتى ذلك الحين. كانت ابتسامته جميلة، وإلى جانب ذلك، بدا غير مؤذٍ، فأجبته:

- لا أعرف، ولكن ما أعرفه هو أنه يمكنني شرب الزجاجة بأكملها بسهولة.

ابتسم «الفيلسوف» وقال:

- دعنا نرى من سينهي زجاجته أولًا.

رفعنا الزجاجات إلى شفاهنا، وراقبناها لنرى كم شرب الشخص الآخر. طعم النبيذ لاذع، لكنني شربت وشربت، لا أريد أن أستسلم. في النهاية، والدموع في أعيننا من الجهد الذي بذلناه، استسلم كلانا قبل الوصول إلى النهاية.

قلت له باللغة المقدونية:

- حفنة من الرجال الملعونين.

- ماذا؟

قالها بالإنجليزية، وضحكنا بصوت عالٍ. هذه هي الطريقة التي بدأ بها ارتباطي بـ»الفيلسوف» الذي لم أتبادل معه قصة حياتي في لقاءاتنا القليلة الأولى، كما فعل الكثيرون في اللقاء الأول، مثل ذلك الشيخ من بلجراد.

كان «الفيلسوف» رجلًا ذكيًّا ووسيمًا. يتحدث الإنجليزية بشكل سيئ، مثلي تمامًا. في الحقيقة، لم يتكلم كثيرًا، لكنه عرف سر الكلمات والحقيقة. لا أعرف لماذا كان يرافقني، لكنه كان - عمليًّا - الوحيد الذي لم يطلب مني أي شيء. بدلًا من ذلك، أعطاني

أشياء. من خلال مراقبته، اكتشفت أن الطريقة الصحيحة للتلقي هي العطاء. تعلمت الكثير منه، وتعلمنا الأشياء معًا. تأثرنا بسحر موسيقى «الجاز» و»البلوز». استمتعنا بأصوات السود بصوت عالٍ ونحن سكارى. غنينا: «أنا لا أملك أحدًا، ولا أحد يهتم بي» في شوارع «نيويورك»، ضحكنا وغنينا: «لهذا السبب أنا حزين ووحيد.. ألن يأتي أحد ليغتنم الفرصة معي؟» هكذا دمجنا حالات الكآبة والرغبة لدينا.

دعوته «بريت» Brate وتعني أخ باللغة المقدونية ودعاني Bruder وتعني أخ باللغة الألمانية. أخبرته وأنا سكران أنني قد أضحي بذراعي اليمنى من أجله، وقال إنه سيضحِّي بالأخرى من أجلي.

لكي تفهمه بشكل أفضل - أو حتى لترتبك أكثر - قد يكون من الأفضل أن تقرأ بعض ملاحظاته. تلك التي قرأتها ذات ليلة عندما نام وهو سكران، لكنني لم أفهم شيئًا منها والذي قدمها لي هدية عندما لاحظ أنني نمت وأنا أقرأها، وقال لي في الصباح:

- اقرأها في وقت ما في المستقبل، لتتذكر الأحمق الذي بقيت معه في الماضي.

بعض هذه الملاحظات كانت على النحو الآتي:

سيكولوجيا الدموع

كان «أناكسيماندر» من علَّمنا منذ زمن طويل أن أصولنا البدائية لا نهائية ولا حدود لها، وأن كل شيء في حالة تدفق مستمر بسبب التضاد. لو كان يعلم أن علم الوجود الخاص به ينطبق الآن على علم

النفس والأنثروبولوجيا، وأنه يمكن أيضًا تطبيق نظريته عن «التدفق المستمر الناجم عن التضاد» على الحب، لكان قد ذهب بعد ذلك إلى حبِّه، وكانا سيبحثان معًا عن المغزى من الحياة.

كانت هذه واحدة من تلك الحكايات العميقة التي أحب طلاب الفلسفة في منتصف العمر سردها لبعضهم بعضًا، في وقت ما في أوائل العشرينيات من القرن الماضي في أمريكا.

- أيها المعلم الحكيم الذي يعرف كل شيء، هل كل الفضائل متوافقة مع بعضها بعضًا؟ مثل الحب والاعتدال؟

سأل طالب فضولي المعلم المخضرم، بعد قراءة كتابات «أفلاطون» في غرفة بمبنى يشبه مكانًا للعبادة. قال المعلم:

- لا توجد إجابات صحيحة، فقط أسئلة صحيحة.

سأل الطالب:

- هل الأنانية هي الكفر المطلق؟

- نعم.

تقريبًا لم تكن تلك الإجابة مرضية للطالب، لأن الإجابات تحتوي على تفسيرات، ويبدو أن هذا المعلم كان كسولًا جدًّا لدرجة عدم شرحه التفاصيل.

القصة الأكثر رومانسية في العصور القديمة هي قصة الحب بين رجلين: «ألكيبيادس»، الرجل الأكثر وسامة في أثينا، و»سقراط»، الأبشع، ولكن أيضًا الأكثر حكمة. يخبرنا «أفلاطون» أن «سقراط» لم

يسلم نفسه على الفور لـ»ألكيبيادس»، الذي رغب فيه بشغف، لأنه أراد أن يعلِّمه أن الحب الجسدي يقع في المرتبة الأخيرة، وأن حب المعرفة والحقيقة يأتي في المرتبة الأولى. ثم زادت رغبة «ألكيبيادس» أكثر، وصرخ «سقراط»:

- أوه! لا أعرف أي شيء سوى أنك كلما قلت «لا» للآخرين، زادت رغبتهم فيك!

هذا ما كانت عليه ملاحظات الفيلسوف، من بينها العديد من الملاحظات المضحكة، مثل واحدة حول مهرج القصر. كانت تقريبًا:

جلس الملك العظيم وحده أسابيع. لقد جلس وحده في غرفته فترة طويلة لدرجة أنه ظن أنها أكبر وأصغر من حياته كلها. قلق فرسان الملك وأنصاره، كما فعل المهرِّج، الذي أصبح قلقًا لدرجة أنه أصيب بثؤلول على شفته. فكَّر الفرسان في أنفسهم: «مملكتنا ستنهار، ماذا سنفعل بعد ذلك؟»، وخشي المؤيدون أن يأتي اليوم الذي سيتم فيه استبدال آخرين بهم. بدأ الثؤلول يزعج المهرج لأنه اعتقد أنه جعله يبدو قبيحًا. جلس الملك العظيم وحده في غرفته أسابيع. لقد جلس وحده في غرفته

فترة طويلة حتى بدا له أنها أكبر وأصغر من حياته كلها، كما كتب معلم أو حكيم أو شخص ما في مكانٍ ما.

«من أين أتى هذا الثؤلول؟»، فكَّر مهرج البلاط.

استيقظ المهرج ذات يوم ليجد أن كل من حوله هم من مهرِّجي البلاط! ركض إلى الشارع، وكان

الأمر كذلك هناك! فكر: «ماركس كان على حق. في النهاية، كلنا متماثلون، ولا أرى أينا أكثر تشابهًا من غيرنا!». ركض ليخبر الملك العظيم أنه لطالما أراد أن يلقي بكوب أخضر ضخم في وجهه! وأن كل التصرفات الغريبة التي فعلها بها من أجله كانت ملفوفة في عباءة من الكراهية، وأنه كان يسعل دائمًا، ليس لأنه كان مريضًا، ولكن بسبب رغبة قوية في البصق عليه. لكنه كان خائفًا من أنه قد يفعل ذلك بالفعل، لذلك كان يبتلع لعابه مسبقًا. هذا هو سبب سعاله وليس لأنه كان مريضًا! والآن سيضربه بعصا، ليس فقط عشر مرات - بالطريقة التي أمر بها الملك العظيم أن يُضرب بها لأنه سعل في حضوره - ولكن مائة، ألف مرة بعصا مغطاة باللعاب! وبينما كان على وشك أن يضرب الملك العظيم، استيقظ المهرج وهو يسعل البلغم.

عندما كان مهرج البلاط صغيرًا، كان لديه أم وأخ. ذات يوم، سأل والدته:

- أمي، لماذا أعطيتِ أكبر قطعة من السمكة لأخي؟

وهكذا، هذا ما كان عليه «الفيلسوف»، لم يكن مثل أي شخص آخر. حتى إنه كان غريبًا مع النساء. في كثير من الأحيان، كان يحصل عليهن، ثم يلقي بهن جانبًا.

وعندما أسأل عن السبب، كان يرد:

- عندما يحين الوقت المناسب.. سنتحدث عن ذلك أيضًا.

وجاء ذلك الوقت بسرعة، بعد أن تعلمت اللغة بشكل أفضل قليلًا. بدأنا نتحدث كثيرًا بحق. وإلى جانب الرغبة في مشاركة الخبرات مع شخص آخر، بحثت عيناي في أجساد النساء أكثر فأكثر.

في كثير من الأحيان، كنت أرغب في ملاحقتهن بقدر ما لم أكن أرغب في ذلك. لم أكن أريد أن يحدث ذلك بقدر ما كنت أريده أن يحدث..

***

الراوي



هكذا هي الحياة وهكذا هو العمل الجاد، لا يمكنك تحديد كم لهما، أو قياسهما بالمسطرة أو وزنهما بالميزان. ينطبق الأمر ذاته على الحقيقة.

صاني والفيلسوف



- أتعلم؟

- ماذا؟

- لا أستطيع التوقف عن التفكير في النساء الأخريات. أريد أن أفكر فقط في «لونا». ساعدني أرجوك.

- لا يمكنني مساعدتك.

- لِمَ لا؟

- لقد أخبرتك لماذا. لأنني لا أؤمن بالحب.

الـراوي



ثم أخبر «الفيلسوف» «صاني» جزءًا من قصة حياته، وهي قصة كان من الممكن أن تكون قصته هو بسهولة، لكن «صاني» لم يفهم إلا نصفها.. قالها بكلماته الخاصة، وسأعيد سردها هنا:

- أنا أؤمن بالضرورة، بالقرب، بالروتين، ولكن ليس بالحب، لأنني امتلكت كل ما أردته، ثم اختفى كل شيء، وتطاير مثل الغبار في النسيم. وكل ذلك بسببي، وليس بسببهن.. وقعت كثيرًا في الحب. سئمت من بعضهن بسرعة، والبعض الآخر قمن برميي جانبًا مثل قطعة لحم متعفن. أولئك اللاتي ألقين بي جانبًا كن في فترة شبابي المبكر. تحدثت معهن عن الحب والشعر والفلسفة. تحدثت إليهن كما لو كنت أقف أمام أبواب الجنة، في جنون النشوة! لقد حدقن إلى وجهي بهدوء، ولم يفهمنني. وأولئك اللاتي فهمنني، وجدنني مملًا. تساءلت ما المشكلة. على الرغم من كل شيء، أنا شخص جيد، أنا لا

أؤذيهن، أنا أقرأ لهن الشعر، أنا ذكي.. قالت لي عاهرة في منتصف العمر ذات مرة:

- أنت مثل كل الفلاسفة؛ تقرأ الشعر والفلسفة، لكنك لا تعرف شيئًا عن النساء.

بعد ما قالته، بدأت بالطبع أزورها أكثر من مرة، ودفعت ليس فقط مقابل جسدها، ولكن أيضًا من أجل التحدث معها.

- لن تهتم النساء بحالم يقظ يعيش في عالم آخر، بل يُرِدن شخصًا يحميهن ويعرف كيف يستمع لهن. وفوق كل شيء، شخص ما يمكن أن يتباهين به أمام أصدقائهن. عندها فقط يمكنك قراءة الشعر ومناقشة الفلسفة.

أنهت العاهرة كلامها، مقدِّمة لي الحقيقة الأكثر واقعية أو الأكثر عملية أو كما تريد تسميتها. لذلك، في سن الخامسة والعشرين، اشتريت لنفسي بذلة جديدة، وقبعة عالية وعصا حديثة، وصندوق لامع للأشياء الثمينة، وتغيَّر كل شيء. ثم غادرت إلى أمريكا. هنا، في غضون عشر سنوات، انقلبت نظرتي إلى العالم رأسًا على عقب، ولا أعرف مكاني، ولكي أكون صادقًا، لم أعد أهتم أين أنا أو ما أفعله.

قاطعه «صاني»:

- لماذا لا تؤمن بالحب؟

قال الفيلسوف لـ»صاني» وهو يضحك من نفسه:

- كن صبورًا. يقولون إن الصبر أم الحكمة. أنا أقول إنها أم كل مَن لم يحقق أي شيء في حياته.

وتابع:

- بعد تلك العاهرة، كنت أقرأ الشعر على النساء فقط إذا طلبن مني ذلك. ولكن حتى في ذلك الوقت، كنت أتظاهر باللامبالاة وبأنني لا أستطيع أن أفعل ذلك بشكل جيد. وأتبع ذلك بأبيات قوية جدًّا، فقط بضعة سطور مختارة لسحرهن، ولم أعد أقرأ المقطع بأكمله كما كنت أفعل في الماضي. حسنًا، بعد ذلك.. بعد ذلك بدأن في مضايقتي، كما لو أن التاريخ يُعيد نفسه. بكل بساطة، كنت أعرفهن بالطريقة التي يتنفسن بها، كنت أشعر بالحاجة إلى نظرتهن حتى قبل أن ينظرن إليَّ، كنت أتوقع عطشهن حتى قبل أن يشعرن بالعطش. عيونهن، التي كانت تنظر إلى العشب برقَّة، لم تعد توقظ الشعور ذاته فيَّ. شفاههن الرطبة لم يعد لها الطعم المجهول ذاته، لم تعد ملامحهن تحمل أي سحر، لم تكن أصابعهن الأنثوية الطويلة جديدة عليَّ. وكذلك هي أيضًا، تلك التي كنت أعبدها كما

لو كانت سرًّا عتيقًا، كما لو كانت الطبيعة الأم نفسها، كما لو كانت شجرة منعزلة في وسط الصحراء. ثم إنني لم أشعر بالإثارة ذاتها من لمسة الجلد العاري في الصباح الباكر، عندما تندمج الأحلام مع الواقع، عندما تكتسب تلك القدرة الفريدة التي لا مثيل لها على المبالغة في تقدير جمال الواقع كما لم يحدث في أي جزء آخر من اليوم. صحيح، لم أتعب من أفخاذهن أبدًا، أبدًا. ولكن هذا كل ما تبقى، وهذا ليس إنجازًا حقيقيًّا. هذا ما علمنا إياه «أفلاطون»، ولا يمكنك الوثوق به. لقد أزعجني ذلك - ولا يزال يزعجني - لأنه دون

استثناء، حتى في أكثر اللحظات التي يحدث بها اتحادٌ كاملٌ بين جسدين، يأتي وقت النفاق. يعلمنا «أفلاطون» أن حب المعرفة هو أسمى غاية ممكنة. وحب المعرفة هو حب الحقيقة، هكذا أفسِّر كلام «أفلاطون». تلك الحقيقة التي لم أتمكن من تحقيقها مع امرأة. لا يمكنني أن أخبرهن بكل شيء أشعر به. لم أستطع إخبارهن أنني لم أعد أرغب في ذلك كما كنت. في كثير من الأحيان، أتظاهر بالاهتمام وفي الواقع أنا لا أكترث لأمرهن؛ بل أرغب في صديقاتهن.. ولكن ماذا لو أن ذلك الشعور متبادل؟ أنهن يتظاهرن بالاهتمام. لديهن مئات الأشياء التي لم يتمكنَّ من إخباري بها، بالطريقة نفسها التي لم أتمكن من إخبارهن بها، وأنهن يرغبن في أشخاص آخرين أيضًا. ربما حتى في تلك اللحظات التي يكون فيها هذا الشعور أقوى من كل شيء. حسنًا، لنقل أنت و»لونا»، على سبيل المثال. لن تخبرها أبدًا بأي شيء عما فعلته هنا. أي نوع من الحب هذا يا عزيزي «صاني»؟ الحب الحقيقي؟ بالطبع لا. ومع ذلك فأنت تريد العودة إليها. لماذا؟ للحصول على ما كان ملكك؟ الحب يا أخي موجود فقط على القمر، في الظل الصغير الذي يُلقي به علينا. وعندما تُقابل امرأة أخرى، سيكون الأمر كذلك أيضًا. سيختبر كلاكما كل شيء يجب تجربته، وستصل إلى النتيجة نفسها. كل شيء في هذا العالم هو مجرد فكرة، كما قال «أفلاطون». لا شيء حقيقي. في النهاية، لا نرى الأشياء على حقيقتها. من المستحيل أن تحب كما في القصص، عزيزي «صاني». على الرغم

من أنه يمكنك أن تعيش بسعادة تامة، إلا إذا كنت ترغب في تلطيخ حياتك بلا داعٍ، مثلي تمامًا. لقد عشت الكثير من القصص العظيمة بهذه الطريقة. لقد أسأت التعبير؛ بدلًا من ذلك، كنَّ يتدفقن، ويغمرنني، ويرفرفن ويطرن مع العرق والدموع والابتسامات. لقد حرصن على تأمين ما وحَّد

أرواحهن، رغم أنه لم يعد موجودًا. لكن هذا شيء لا أفهمه حقًّا. هنا يقع سوء حظي. أنا لست منقطعًا عن العمل بهذه الطريقة، على الرغم من أن الكثيرين كانوا سعداء بهذه الطريقة، بعيوبهم الكاملة. أعتقد أن الرب وحده يستطيع أن يحب دون قيد أو شرط، لكنني لا أؤمن به.. قد يكون مصيرك مختلفًا. قد تكتشف أنني كنت مخطئًا في تفسيري لـ»أفلاطون» أو ستجد تفسيرًا حقيقيًّا للحقيقة والحب. قد تجد مسارًا آخر يوضح لك أنه في هذا العالم لا يجب أن يكون الحب ثابتًّا طوال الوقت، لأنه في الصميم لا شيء يبقى على حاله، لسبب بسيط؛ هو أننا نتغير أيضًا. لأن الناس يتغيرون، تتغير الأشياء أيضًا، وفقًا لفهمي لـ»هرقليطس». ولكن بعد ذلك مرة أخرى، من ناحية أخرى، أنا أتغير، ولكن تواجهني المشكلات ذاتها دائمًا. ليست لديَّ إجابة يا عزيزي «صاني»، لا شيء..

سأل «صاني» «الفيلسوف»:

- في البداية، هل كنت تعتقد أنك ستبقى معهن حتى نهاية حياتك؟

بدأ «الفيلسوف» حديثًا آخر:

- في البداية نعم، بلا استثناء. على سبيل المثال؛

تلك الفتاة البولندية «مايدة». زوجتي الأولى. كانت جميلة جدًّا، ألطف فتاة في العالم. لا أعرف أكان السبب بشرتها أم صوتها أم روحها الرقيقة للغاية. أو ربما كان الشيء الذي ينال الاستحسان حقًّا هو أموال والدها فقط، والتي أهدرتها في العام الأول.

قالها «الفيلسوف»، ضاحكًا كرجل مجنون مرة أخرى، وبعد ذلك تابع قصته:

- كانت تجذب الانتباه كلما مرَّت أمام أي شخص مثل قصة بريئة. صوتها، كلماتها، شعرت بإحساس الطفل عندما يستشعر تنفس أمه، وهو مستلقٍ على صدرها بعد البكاء من الجوع. ولكن كل ما أحببته سرعان ما كرهته. بعد عام من الحنان، بدأت أشعر به كشيء جامد إلى حد ما. بدأت حاجتها إلى الأمان المستمر - والتي يجب أن أقول إنني استمتعت بها كثيرًا، شاعرًا كأنني الرجل

الأول والأخير بالنسبة لها - تزعجني. اعتقدت أنها ستتشبَّث بي وتحتويني. ذات يوم، كنت أداعب شعرها وكانت تنخر مثل قطة صغيرة تحت الأغطية، مسرورة لأن زوجها كان بجانبها، وأنه هو الذي يتخذ جميع القرارات، الذي فعل كل شيء، وكل ما هو ضروري، لتكون في مأمن من كل مكروه. وقلت لنفسي في ذلك اليوم: «إذن فأنا ألعب دور الأب وليس دور الزوج!» لقد أزعجتني. نهضت، ودفعتها بعيدًا. أعتقد أنها بكت كثيرًا. ربما لا تزال تبكي حتى الآن.. غادرت تلك المدينة واختفيت.

- بتلك السهولة؟

- نعم، هكذا بالضبط.

- ألم تشعر بالسوء تجاهها؟ بِمَ شعرت؟

- لا شيء. تساءلت إذا كنت أنانيًّا أم لا.

- والنتيجة؟

- لست كذلك.

وبدأ يروي قصة حبه الثاني:

- والثانية كانت عكس ذلك تمامًا. سلك مكشوف حقًّا. لقد دفعتني إلى الجنون بشغفها، ورغبتها في الحياة، وإلى تجارب جديدة. لقد غامرت في منطقة غير مستكشفة بحماسة تركتني عاجزًا عن الكلام. ولكن بعد ذلك، مرة أخرى، لقد أرضتني. أو ربما كنت خائفًا أيضًا لأنني لم أستطع مجاراة الأمر. كانت امرأة ذات وجهين. يبتسم أحدهما والآخر حزين. ولا شيء بينهما. لم أستطع مواكبة طاقتها، وجرَّني حزنها معها. كانت قوية جدًّا لدرجة أنني بدأت أتصرف وفقًا لاحتياجاتها. أرادت مني أن أخبرها كل يوم أنني أحبها، وأنني سأحبها إلى الأبد. في البداية، أخبرتها أنني أحببتها حتى قبل أن تفكِّر في أن تسألني. ثم جاء الوقت الذي قلتها فيه وعنيتها. وفي اللحظة التي أدركت فيها أن

شيئًا ما تغير في صوتي، وأنه لم يكن صوتي، أخبرتني أنها تريدنا أن نتزوج. أخبرتها أنني سأرحل.. مرَّ العديد من أصدقائي بأشياء مماثلة، لكن يبدو أنهم لا يمانعون حدوث ذلك. ربما لا يُمانع بعضهم لأن لديهم أطفالًا، لا أعرف.. في النهاية، مرضت حبي الأخير جدًّا. كانت تعاني مرضًا غيَّر ملامحها. مزَّقها من

الداخل والخارج. حتى إنه غيَّر شخصيتها. وعندما احتاجتني بشدة، غادرت. لم أستطع مشاهدتها وهي تتدهور. لقد أثار الأمر اشمئزازي. بكل بساطة، لم يكن حبي موجهًا إلى امرأة مريضة، وجهها منهك، بل إلى المرأة الجميلة التي كانت عليها قبل أن تمرض. لم أفكر مرتين في تركها. كنت أعلم أنها فعلة شنعاء كما لو كنت أمًّا تترك طفلها، لكن عندما نظرت بعمق إلى داخلي، كان كل شيء بداخلي يقول إنني - بصرف النظر عن الاشمئزاز الذي كنت سأشعر به مع تدهور حالتها - لا أشعر بأي شيء تجاهها. وغادرت، كأنني أسوأ رجل على وجه الأرض.. أنا لا أؤمن بالحب، لأنه كلما حصلت عليه، كان دائمًا يختفي ويجلب التعاسة لمن حولي. صحيح، يجب أن أؤمن بالحب لأنني حصلت عليه في البداية، وهذا ما يعني أنه موجود بالفعل، لكنني لا أؤمن بثباته. ومن دون ذلك، لا يوجد حب أيضًا، على الأقل بالنسبة إليَّ.. لهذا السبب، النصيحة الوحيدة التي يمكنني أن أقدمها لك هي إما ألا تفعل أي شيء ليس عليك فعله، وإما أن تفعل كل شيء. لكن يمكنني أن أرى أنك لم تعد في حاجة إلى ما كنت في حاجة إليه من قبل، وأنك لا تحتاج إليه في أعماقك. وشخص مثلك لا يمكنه العودة إلى المنزل، لأنك لن تعيد إلا وجع القلب. يتم العثور على إجابات لكل ما يحدث في حياة الشخص بعد حدوث الشيء الذي كان يبحث عن إجابات له. حتى عندما يصدرون أحكامهم. حتى عندما يستطيعون التنبؤ بكل الحركات الممكنة. لا يمكن لأي شخص أن يتنبأ كيف

سيكون رد فعلهم تجاههم، لأنهم لن يعودوا الشخص نفسه الذي كانوا عليه قبل عام أو عامين، كما قال «هرقليطس». وينطبق الأمر ذاته عليك. لا يمكنك أن تظلَّ وفيًّا لرغباتك وحبك، لأنها تنتمي إلى وقت مختلف كنت شخصًا مختلفًا فيه. في هذا الوقت وفي هذا المكان، أنت لست الشخص ذاته، وستظل هكذا دائمًا. الأمس والغد مثل النهار والليل. لا يمكنك الرؤية في الليل بعيون ضوء النهار. لا يمكنك سوى العثور على الأشياء عن طريق تحسسها، وهو ما يكفي لتعرف أنها موجودة،

وليست شيئًا آخر. لا أستطيع أن أقول لك ماذا تفعل. لا أستطيع أن أنصحك، لأن الطريق الصحيح الوحيد هو الذي سيجعلك سعيدًا، وفي الوقت نفسه الآخرون سيسعدونك أيضًا. لكن في كثير من الأحيان هذا غير ممكن. إذا اخترت طريق الماضي، فستختار عدم السعي وراء سعادتك، وهذا أمر خاطئ أيضًا؛ تمامًا كما أنه من الخطأ عدم اختيار الماضي، والذي قد يكون أحيانًا - في حالات نادرة - هو الحاضر. فكِّر في الأمر واتخذ قرارًا، على الرغم من أنك قد قررت بالفعل ولكنك ترفضه.

أنهى الفيلسوف حديثه، وأخذ جرعة كبيرة من شرابه.

انحنى «صاني» إلى الوراء في كرسيه، وهبَّت عاصفة قاتمة على أفكاره كما لو كان مطرًا ملوثًا قادمًا من مكانٍ آخر.

***

الراوي



مكتوب أنه في أوقات أخرى غير هذه، أوقات أقدم من الكلمات الأولى، عندما سار الحب على الأرض، وكانت الدموع لم تولد بعد، كان الرجل والمرأة متحدين في جسد واحد. كانا كافيين لبعضهما بعضًا، مسجونين في حضن أبدي. ولأنهما كيانان في جسد واحد، فقد وصلت بهما القوة بأنهما أرهبا الآلهة العظيمة.

خافت الآلهة من وحدتهما المطلقة وقسمت الأجساد إلى قسمين. نسي كل نصف مسكينٍ على الفور الطعام، والماء، والشمس، لأنه لا شيء آخر يهم سوى البحث عن النصف المفقود ليجعلهما كاملين مرة أخرى، في كل مكان وإلى الأبد؛ وإذا لم يجدوا النصف المثالي، إذا لم يعثروا على رائحة النصف الذي يكمِّلهم، يموتون ودموعهم في عيونهم، والتي أطلق عليها لاحقًا اسم «البكاء». منذ ذلك الحين، منذ تلك العصور القديمة، كان العشاق يبحثون عن

النصف المثالي، وعندما يجدونه، يتحد معه كل شيء. ومع ذلك، حتى عندما يحدث ذلك، تفرقهم الآلهة مرة أخرى.

الراوي



مسكين «صاني»، كان في حالة من الحزن. لم يُخرج «لونا» من عقله أبدًا، في حين أن رائحة «دراجا» أصبحت أضعف وأضعف. ولكن ما أهمية ذلك إذا كان عاجزًا عن مقاومة إغراء الجسد الأنثوي؟ نظر إلى جميع النساء خلسة. لقد جذبته تلك اللعبة التي لعبها «الفيلسوف» مع النساء، والتي أسعدته أكثر من اتحاد جسدين. بدأ يلعب تلك اللعبة أيضًا. بدأ في كسب النساء، ويلقي بهن جانبًا عند أول علامة على الاهتمام. وبعد فترة، ربما تفهَّم موقف «الفيلسوف»، ذلك الذي لم يفهمه تمامًا في البداية، ربما لأنه لا يوجد أي منطق في ردود فعل «الفيلسوف».. على أي حال، منذ ذلك الحين، تدفقت قوة «صاني» بشدَّة لإغواء النساء بحرية أكبر من أي وقت مضى، كما لو أنه ولد ليفعلها. لم يقل لهن الكثير. كان يكتفي بإبعاد خصلة شعر جامحة عن خدِّهن، ويمرر أطراف أصابعه من الأذن إلى

الرقبة وعلى أكتافهن العارية، محدقًا إلى عيونهن؛ عرفت النساء بعد ذلك أنه كان يحدق إلى أرواحهن الصاخبة وبنظراتهن المنخفضة.

وبعد انتهائه، كن يذهبن إلى الفراش معتقدات أنهن سيرونه مرة أخرى في اليوم التالي، وأنهن سيبقين في ذهنه. لكن في اليوم التالي، كان يرتدي وجهًا مختلفًا. يرد بشكل قاطع على أسئلتهن حتى شعرن كما لو كن غير مهمات، ويتحدثن عن كل شيء وأي شيء، فقط لكسر الصمت غير

المريح الذي خلقه «صاني». بعد ذلك كان يقول إنه ذاهب للجري، وينتهي به الأمر مع امرأة أخرى أو يغادر ببساطة.

هكذا كان يتلاعب بالنساء، لكنه لم ينم معهن. كان في حاجة إلى جسد أنثوي لكنه كان يحافظ على نفسه من أجل «لونا»، أو على الأقل هذا ما قاله. عرف «صاني» جيدًا أن مثل هذه الكذبة لا يمكن أن تخدع طفلًا؛ وأنه كان يخدع نفسه فقط، وأنه لا يوجد شيء أكثر قيمة من ذلك في هذا العالم. ولكن هذا هو التنازل الوحيد الذي سمح لنفسه بتقديمه، لقيادتهن، وليُشعر نفسه بالقوة مثل الجبل، ويبعدهن عندما ينتهي منهن. وفي الليل كان يعذب نفسه بأفكاره المختلطة، مزدحمة بأجساد النساء و»لونا» البعيدة. قبل ذلك بوقت طويل، كان عقله وجسده قد تقبَّلا بالفعل حقيقة أنه لا يمكنه التفكير مرة أخرى إلا في امرأة واحدة. لكنه أيضًا لن يتوقف عن رغبته في تقديرهن له والتي كانت تغلبه دائمًا. كان

يعلم ذلك بالفعل، كما يتذكر العشب خطوات الدب، وكما يُدرك الدجاج أنه فقد إحدى بيضاته، وكما تحلُّ على الشجرة سعادة غامرة باللون الذهبي للخريف، على الرغم من أنها تعلم أنها ستخسر أوراقها تدريجيًّا.

لكن هذا لم يكن الخطر الأكبر هنا. فقد ظهرت كما لو كانت في رؤيا، كما لو أن أمطارًا ملوثة قد أتت بها، بعد أن أدرك «صاني» تمامًا أنه لا يمكنه الاكتفاء بامرأة واحدة، وأنه لن ينال السلام أبدًا بمجرد أن يبتسم له أحد، يعرف الفرق بين ملح الدموع المزيفة وملح الدموع الحقيقية، ويعلم أيضًا أن زوايا فم المرء لا ترتجف بحق سوى أمام شخص ما. وفي الوقت ذاته، يجب أن يغرق أكثر. لم تكن هناك طريقة أخرى. وذلك كان عندما التقى «ماريان».

***

الراوي



عندما كانت «ماريان» طفلة صغيرة، رأت طائرًا يطير بفرح فوق حقل، يطير من شجرة إلى شجرة. كانت أغنيته جميلة لدرجة أن أشعة الشمس غيرت اتجاهها عند سماعها كل يوم، من بعيد، حتى لا تخيفه، كانت تستمع لأغنية الطائر المزينة بألوان زاهية. حتى ذات يوم، وقفت تحت الشجرة في ظل عش الطائر. ورأت أن الطائر كان يطير من شجرة إلى شجرة لكي يصطاد الحشرات.

ماريان



عندما كنت فتاة صغيرة، رأيت طائرًا يطير بفرح فوق حقل، يتنقل من شجرة إلى أخرى. غنَّى الطائر برقَّة شديدة لدرجة أنني كنت متأكدةً من أنه ينادي حبَّه الحقيقي. كل يوم، من بعيد، حتى لا أخيفه، كنت أشاهد الطائر، وأستمع لأغنيته. حتى وقفت تحت الشجرة في ظل عش الطائر، ورأيت أنه كان يطير من شجرة إلى شجرة لكي يصطاد الحشرات.. كان ذلك بمنزلة بداية نهاية طفولتي في فرنسا. بعد ذلك، تزعزعت كل خيالاتي الطفولية بداخلي وتحطمت مثل الزجاج. كل شيء مر كما لو كان ضبابيًّا.. كنت أطير عدَّة مرَّات من شجرة إلى أخرى، لكن السعادة لم تأتني أبدًا. ولا حتى مع «الفيلسوف» هنا في أمريكا. عندما رأيته أول مرة، بدا لي مألوفًا على الفور، كما لو كنت قابلته في مكان آخر وفي وقت آخر، عندما كنت أكثر سعادة. على الرغم من أن والدي كان يقول إن كل الأوقات سعيدة وغير

سعيدة، فإنه يعتمد الأمر فقط على كيفية رؤيتك إياها واختيارك. لم أتفق مطلقًا مع والدي الحكيم، لكن كل ما قاله تقريبًا كان حقيقة بلا فائدة. لم يكن ذلك بلا فائدة فحسب، بل كان أيضًا عائقًا أمامنا، لأنه كان أحد أولئك الأشخاص الذين اعتقدوا أن معرفة الحقيقة تجلب الكثير. وبينما كنا ننتظره

ليحضر لنا شيئًا، لم يجلب شيئًا. وهكذا انتظرنا طوال الوقت، وعانينا أكثر منه لأنه كان مليئًا بالأمل على حين كنا نفتقر إليه. كان «الفيلسوف» متكئًا على المنضدة بذراعيه القويتين، ويعرف كل الحقيقة التي اعتقد والدي أنه فقط يعرفها. ليس ذلك فحسب، فقد كان لديه كل ما يحتاج إليه؛ جسد منحوت مثل الرخام، بعبارة أخرى، منحوت مثل الإله. بسببه، عدت أقرأ الشعر من جديد، وأدرس الفلسفة. لقد أصبح من المألوف أن تقرأ وتدرس، أمر عصري ورائع. كان دائمًا مع صحبة غريبة، لكنهن جميلات بحق. لم ينظر إليَّ حتى.. حتى جاء ذات يوم وسألني:

- لديَّ كأسان من النبيذ؛ إحداهما لي والأخرى لأحزن امرأة في العالم. هل ستكون أنتِ؟

تشنج حلقي ووبخت نفسي في وقت لاحق على تلك الليلة عندما تذكَّرت كل الكلمات التي قلناها لبعضنا بعضًا، متسائلة لماذا قلت ما قلته. أجبته:

- ماذا تقصد؟ «حزن»؟ ما الذي تعنيه بذلك؟

خرجت الكلمات مني بسرعة.

- إذن هذه الكأس ليست لكِ. خسارة. وداعًا إذًا

أيتها الفتاة الفرنسية الجميلة.

قلت له:

- لا، أريد بعض النبيذ.

قال:

- ربما غدًا.

واستدار ليغادر. لكنه توقف واستدار مرة أخرى وسلمني الكأس. قال:

- بعد التفكير، سأخبركِ بقصة جبابرة «أفلاطون». أسمعتِ عنها؟ إنها أسطورة يروي فيها «أفلاطون» قصة الجبابرة، وكيف كانوا في الأصل ذكورًا وإناثًا متحدين في جسد واحد، ثم قسمتهم الآلهة الغيورة إلى قسمين.

وبدأ في سرد الأسطورة، وغادر على الفور بعد أن انتهى من إخباري القصة كما لو أنه لم يكن هنا على الإطلاق.. كان يفعل ذلك طوال الوقت. ظللت شهورًا أراه يفعل ذلك مع نساء أخريات أيضًا. كان يبهرهن، ويكسبهن، ثم يتخلى عنهن. كأن أحدًا لا يستحقه. لذلك تساءلت، فكرت، بررت ذلك لنفسي، وقلت، حسنًا، ربما كانت لديه صورة عن المرأة المثالية، النوع الذي يجده الرجل مرة واحدة فقط في حياته، وماتت، ولهذا السبب لا يمكنه أن يكون مع امرأة أخرى الآن. أو ربما ماتت وهي تضع مولودًا ميتًا. أو ربما أصيبت بمرض، نوع من المرض الرهيب، وشوه جسدها ووجهها قبل أن تموت، لذلك لا يمكنه تحمل النظر إلى النساء الأخريات لأن وجهيها هو كل ما يراه أمامه؛ الوجه الجميل، والآخر الذابل الذي دمَّره

المرض. أو ربما تنتظره في مكان ما بعيدًا، تنتظر بإخلاص الرجل الذي يتردد صوته المزدهر في ذاكرتها ليلًا ونهارًا. ربما لهذا السبب لا يسلِّم نفسه للأخريات. لماذا لا يخضع لأحد؟ لأنه يتذكرها في نفسه أكثر من النساء اللواتي تعلَّقن به، ويطالبن بقطعة من لحمه المغري أو أفكاره أو كليهما، على حسب ما يجذبهنَّ.

لم أفكر أبدًا على سبيل المثال - وهذا ممكن تمامًا - أن حبيبته ربما خانته مع أقرب أصدقائه، ولهذا السبب وحتى الآن لا يمكنه تحمل رؤية امرأة أخرى. ربما تلك - التي كان لديها كل شيء - شعرت بالملل. ربما كانت قد استمرت في علاقتها مع أعز أصدقائه فترة طويلة، وعندما أدرك أن كل مجاملة وكل قصيدة وكل حقيقة كانت أكاذيب، وأنه لا يمكنه أبدًا استعادة كل ما فعله في تلك السنوات الثمينة، وهو ما يحدث عادة مرة واحدة فقط، حسنًا، ربما بعد ذلك تحطَّم شيء بداخله، وهو الآن يكره الجنس الأنثوي بأكمله. لكنني لم أتخيل أبدًا، كما قلت، أن مثل هذا السيناريو كان ممكنًا. كنت دائمًا أرى الجانب الإيجابي. هذا هو النجم الذي ولدت تحته، هكذا كانت والدتي تقول لي على حين كنت ألعب بدميتي القماش على متن السفينة التي تقلنا من فرنسا إلى أمريكا، إلى

أرض الميعاد حيث من المفترض أن يحقق والدي أخيرًا حلمه وحقيقته ليجلب لنا بعض السلام. قال والدي، الذي لم يرَ قطعة واحدة من الذهب في كاليفورنيا، لأنه كان ينتظر ما يعتقد أنه سيكون «الحقيقة»:

- سيكون لدينا الكثير من السلام والكثير من المال لدرجة أننا لن نعرف ماذا نفعل به.

ولكن إذا انتظر الرجل حتى يتأكد من شيء ما، فإنه في أغلب الأحيان لن يكون ذا قيمة عندما يحدث ذلك. كل أولئك الذين لم ينتظروا كانت لديهم بالفعل متعة البحث عنه، حيث لم تتح لنا الفرصة أو التجربة.. ولكن الأمور تظل على حالها دائمًا.

دعني أعود إلى موضوع لقائي بـ»صاني» بعد «الفيلسوف». ذات ليلة، قال «الفيلسوف»:

- لا يجب أن يكون الشخص سعيدًا حتى يحقق شيئًا؛ السعادة ليست الهدف النهائي لجميع البشر، بل الإنجاز. الإنجاز يجلب معه كل ما نحتاج إليه للمواجهة، لكنه لا يضمن السعادة؛ بدلًا من ذلك، فإنه يترك مجالًا لنا للبحث عن الحقيقة، وهذا هو الطريق الحقيقي الوحيد الذي هو في حد ذاته السعادة.

ودون الكثير من الفلسفة، أجاب «صاني» أنه لم يكن ذكيًّا بما يكفي ليقول ما يجول بخاطره، لكنه يعرف أن الطريق الصحيح الوحيد هو عندما تجد المرأة المناسبة، والتي ستكون معها كيانًا واحدًا في جسدين. قال «الفيلسوف»:

- أتشدين ساقي؟

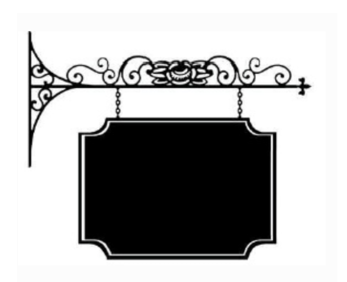
وانفجر كلاهما ضاحكين. في تلك الليلة، سألني «صاني» عن لعبتي المفضلة عندما كنت صغيرة. قلت:

- اللعب في المنزل. أردت دائمًا أن ألعب دور أم جميع الأطفال.

نظر «صاني» إليَّ، ورأيت في عينيه رؤيته للمثالية والكمال، والتي بدت وكأنها تقضي على شعوري بضياع شبابي.

***

صاني



مرَّ عام آخر، بدا لي وكأنه بضع ساعات فقط، تعودت منذ فترة طويلة أن أكون سعيدًا بمفردي. كان عليك أن تتعلم فعل كل شيء بشكل مختلف؛ أن تتكلم بطريقة مختلفة، تبكي، تحلم، أن تكون سعيدًا، أن ترى.. في الواقع، لقد عشت طفولة متأخرة في أمريكا. وكأنني أستشعر جاذبيتي أول مرة، وكأنني قد تحررت، وركضت دون أن أنظر إلى الأمام أو الخلف، وكأنني خائف من إضاعة شبابي وأيامي في أمريكا. ثم، وللمرة الثالثة، قابلت امرأة يمكنها التمييز بين ملح الدمعة المزيفة وملح الدمعة الحقيقية. شخص تعلَّم أيضًا من وحي التجربة أنه لا توجد سوى مرات قليلة في الحياة ترتجف فيها زوايا فم المرء بحقٍّ في وجود شخص آخر.

ولم يكن هناك سلام داخلي. في الوقت نفسه، يجب أن أبحث أكثر. لم تكن هناك طريقة أخرى. كنت مع «الفيلسوف» في وقت متأخر من إحدى الأمسيات، في بار مليء بالدخان، في الوقت الذي

عصت فيه أقدام المرء عقله. كان اسمها «ماريان»، لديها بريق في عينيها وطوفان بداخلها لا يطفئ الحرائق بأنواعها. كان الأمر كما لو أنها خُلقت من أجلي فقط.. بالطبع، في الوقت نفسه، علمت أن هذه ليست قصة عادية. لكن الراوي الذي يعرف أسرار سرد القصص يعرف أن القرار لا يجب أن يكون بسيطًا؛ بالأحرى، كل رمية للحجر تتدحرج بشكل مختلف.

لاحظت على الفور أنني كنت أنظر إليها، وأنها لم تستطع أن تستميلني، لذلك بدأت تموء مثل قطة هائجة، تلف ذيلها حول كل حواسي، والتي، بطبيعة الحال، تخيلتها عارية على السرير. لكن حواسي لن تستسلم بهذه الطريقة فقط بسبب الحاجة الجسدية، والتي زادت مع النغمات العالية وصوت البيانو القوي، والتي بدت كأنها تقدم موجة جديدة من الموسيقى مع كل أغنية. في المساء التالي، وجدت نفسي هناك مرة أخرى، مع المرأة التي لم تكن تنوي الاستسلام بسهولة أمام الرجل الذي لن يخضع لها في الحال - على عكس كل من سبقه - ومع ذلك ينظر إليها بجرأة ويبتلعها بعينيه وابتسامة تقول: «أنا جبل أفوق كل الجبال الأخرى، ولا أحد يستطيع أن يصل إلى قمتي المليئة بالثلوج، والتي يمكن أن تذوب بضربة (حقيقية) واحدة فقط».

لأنها لم تكن امرأة عادية، فقد رأت كل ذلك واضحًا تمامًا. كما لاحظت أنني شعرت بتوقها إلى إيجاد تلك العصا السحرية التي ستذيب الثلج. وأنني أعلم

- كما يعلم قلَّة - أنه على الرغم من جمالها وشجاعتها حتى ذلك الحين، كانت تغمس إصبع قدمها في الشلال بحثًا عن مياه أعمق. لقد قدمت لي كل عوامل الجذب التي كان كل مَن حولي على استعداد لدفع ثمنها وزيادة. ذات ليلة، أزعجتُها، ووصلت إلى درجة الغليان، ثم هربت وتركتها تغلي. وفي ليلة أخرى، تظاهرت بعدم الاهتمام التام كما لو كانت تخبرني بتفاهات مملة.

كنت أحادي النغمة، متكئًا على المنضدة، وأكمامي مرفوعة بما يكفي للكشف عن الدم الذي يجري في عروقي. لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة مع «ماريان» كما كان مع الأخريات. كانت تجد طريقة تجعلني أقبّلها، بالنسبة إليَّ أرغب في تقبيلها، وليس لها أن تقبّلني. في إحدى الليالي، عندما كان الويسكي يتكلم وقد جعلني تأثيره غير مدرك ما أفعل، أتذكر أن شخصًا ما جرَّني بعيدًا وحملني إلى مكان ما. لا أعرف كيف ولا أعرف أين. استيقظت في ساحة مليئة بالأشجار، كما لو كنت في المنزل في الغابة أسمع عندلة العندليب.

في حالة نصف الوعي تلك، كنت أفكر في مقدونيا، وغاباتنا، و»لونا»، التي كانت تداعب انتصابي، وهي تحدق في عينيَّ المليئتين بالدموع. فتحت عينيَّ ورأيت «ماريان» تمسكني، مثل

«لونا». لا أعرف كيف تمكنتْ من جرِّي إلى هناك، لكنني أعلم أنه في ذلك اليوم رسمنا خريطة العاطفة على أجسادنا.

الراوي



بعد ذلك، لم يذهب «صاني» إلى البار عدة أيام. كان يذهب مباشرة إلى المنزل بعد العمل. جلس بتعبير ممزوج بين السعادة والحزن. عقله شبه خالٍ من الأفكار. كانت تلك الأيام خاوية لـ»صاني». فارغة وممتلئة. حتى اللحظة التي ابتسم ابتسامة عريضة لنفسه، ألقى سيجارته بعيدًا، وعاد إلى البار.

صاني وماريان



- مرحبًا.

- مرحبًا.

- لِمَ التجاهل؟

- أنا هنا الآن.

- ماذا تقصد بـ»أنا« هنا الآن؟

- أعني فقط أنا هنا.. هنا.

- أنت لست هنا.

- أعلم.

- ماذا تقصد بـ»أعلم»؟

- أنا فقط أعلم.

- تعتقد أنني مجرد عاهرة رخيصة.

- على الإطلاق. أعتقد أنكِ رائعة.

- حسنًا، ما الأمر؟

- أنا لا أعرف.

- ماذا تقصد بأنك «لا تعرف»؟

- أنا لا أعرف. إذا علمت سأخبركِ.

- أنت أكثر الرجال إثارة للاشمئزاز في العالم، أتعلم هذا؟

- بلى.

- اللعنة عليك.

- لا مشكلة.

- اللعنة عليك، اللعنة عليك، اللعنة عليك!

- لا تصرخي.

- سأصرخ إذا أردت ذلك. لا أحد يستطيع إيقافي!

- حسنًا إذن، اصرخي.

- لن تراني مرة أخرى.

- أريد أن أراكِ.

- ماذا تعني أنك تريد أن تراني؟ إذا أردت لرأيتني.

- لنؤجل هذا إلى الغد.

***

صاني



في الليلة التالية، ظهرت «ماريان» سكرانة، وهي تصرخ وتتهمني أنني كنت أتلاعب بها، وأنني كنت أخدعها بنظراتي وألقيتها جانبًا مثل دمية بالية، وأنه «ليس عليك التلاعب بالناس بهذه الطريقة لأن لا أحد يستحق ذلك». متناسية أنها هي نفسها فعلت الشيء ذاته، ربما في كثير من الأحيان وبطريقة أكثر قسوة مني. لكمتني في صدري بقبضتيها الأنثويتين، وصرخت في وجهي. بعد ذلك عانقتني واستلقت على الصدر ذاته الذي كانت تضربه منذ لحظة واحدة فقط، وقالت:

- ألا تفهم؟ أنا أحبك.

وذلك عندما شعرت أنني قد حطمت ما كان يتوق إليه كل مَن حولي، ما فزت به ثم ألقيته جانبًا. يا لها من معركة! يا له من نصر! قلت لنفسي: «إذا طاردتها، سأكون مثل الآخرين. ولكن بهذه الطريقة، وبسبب التزامي تجاه «لونا»، لم أذهب في السعي وراء جسد آخر، يا إلهي! هذه طريقة خاطئة للتعبير عن

الموقف. لقد وجدت لعبة جديدة تسعدني، وحققت المستحيل ولم أتوقف عند هذا الحد. لقد داعبتها، ونظرت في عينيها، ووعدتها بأننا سنرى بعضنا بعضًا في اليوم التالي. ثم وفي اليوم التالي.. لم

أحضر».

أخبرني «ميتسي» أنه عاجز عن فهم موقفي، وأخبرني أيضًا أنني يمكنني بسهولة لعب دور البطولة في فيلم رومانسي. كان الجميع يقول إنني سأصبح أعظم شخصية رومانسية في العالم. لكنه لم يخبرني أنهم كرهوني لسبب بسيط؛ لا يوجد من سيتحمل من هو أفضل منه، كما كان والدي يقول.

لنعد إلى «ماريان»..

بعد أيام قليلة، عدت إلى البار مرة أخرى. كانت هناك، وبالطبع لم تستقبلني. انتظر جميع أصدقائها ليروا ما سيحدث، لم يكتفوا بالتظاهر بعدم الاهتمام، ولكنهم يتصرفون كما لو أنهم لا يستطيعون حتى تذكر ما حدث بيننا. كانت «ماريان» واقفة هناك، تتحدث وتضحك مع رجل غريب. لم تأتِ إليَّ في تلك الليلة. تظاهرت بأنني لم أرها، على الرغم من أنني يجب أن أعترف، أردت أن أعرف أتريد معرفة كوني أنظر إليها أم لا. عدت إلى المنزل في تلك الليلة ومعنوياتي أفضل قليلًا، حتى مساء اليوم التالي - وتبعه العديد من المساءات - عندما مرت بجانبي مع الرجل نفسه. كانت قريبة جدًّا لدرجة أنني أستطيع شم رائحتهما. لكنها لم تعطني أي إشارة. تريدني أن أعرف أنني لم أعنِ لها شيئًا أو أنها فقط تحتقرني.

بدا الأمر كأنني تبخرت، مثل رغبتها وحاجتها إليَّ. بطبيعة الحال، لم يقلل هذا من اهتمامي بها.

قال «الفيلسوف»:

- يحب الرجل أن يكون مهيمنًا. لذلك عندما يختفي الشخص الذي يسيطر عليه، فإنه يُترك دون فرصة لإشباع غروره. الغرور الذي تسبب في ولادة العديد من المتعطشين له في العالم.

شاركنا نوعًا جديدًا من الفلسفة من ذلك الوقت، والذي مرة أخرى لم أفهمه بشكل كامل. ولكن إذا قلت ذلك. سأبدو صغيرًا في عينيها. لا يتغذى الدب على العشب فقط، بل يحتاج إلى العسل

الموجود على قمة الشجرة. وهو أحلى فقط عندما ينتهي من تسلق الشجرة بجهد، ويكشطه بنفسه ويترك بعضًا من فرائه على اللحاء القاسي، ليلعقه إلى الأبد.

بحلول ذلك الوقت، كنت قد تعلمت بالفعل أن أرى الصورة الأكبر من الأمور، وأن أحسبها كما في الرياضيات. كما أوضحوها لنا عندما كنت طفلًا في المدرسة، بالعصي الموضوعة جنبًا إلى جنب، حتى تتمكن من رؤية أن ١ + ١ = ٢ وليس ٣ أو لا شيء كما يحدث أحيانًا في الحب.

وهكذا، عند حساب الأشياء في داخلي، مثل عالم الرياضيات الذي يتوقع تحركاته الخاصة، ويضع قطعة الفيل الخاصة به بالقرب من الملك حتى يتمكن من أخذ الملكة مع حصانه.. تذكرت ما عليَّ فعله.

كانت تجلس بالقرب مني، تضحك مع أصدقائها

السطحيين، وكأن العالم بخير. ذهبت ووقفت بجانب صديقاتها الأقل جاذبية، واشتريت لها مشروبًا، وبعد نصف ساعة غادرت البار معها. صديقتها المسكينة لم تدرِ ماذا تفعل عندما ظهرتُ فجأة، ولم تدرك أنها كانت مجرد بيدق.

بطبيعة الحال، لم تكن لديَّ أي نية لفعل أي شيء معها، ولم أرغب في ذلك حتى. ثم اتضح لي أن وحشًا قد استيقظ بداخلي وكان هدفه الوحيد هو دعس كل شيء، فقط حتى أتمكن من الانتصار، مثل «دراجا»، المرأة التي كانت على متن السفينة التي غرقت، وحجمها الذي لا يقارن حتى بحجم وفداحة خداعي ومكري، الذي لم أكن أدركه أبدًا في الوقت الذي كنت فيه أنا و»لونا» نخلق أحلامًا من الواقع.

كانت «ماريان» قد ذهبت للبحث عنا في تلك الليلة، وبعد أن بدأت في البكاء، غادرت قائلة إنها ستلقي بنفسها في النهر لأنها في الواقع كانت قد هددت بفعل ذلك عدة مرات من قبل. أوقفها «الفيلسوف» الذي كان سكرانًا. في اليوم التالي، كل ما كان يتذكره هو الاستيقاظ في ساحة مليئة بالأشجار، كما لو كانت غابة. وسألتُ «الفيلسوف»:

- ماذا أردت منها؟ ماذا فعلتما؟

قال:

- لا أعرف ماذا فعلنا، لقد كنت سكرانًا جدًّا.

- ماذا تقصد أنك لا تعرف؛ لا يمكنك ألا تعرف.

- حتى لو كنت أعلم، ما الذي سيغيره ذلك؟ على أي حال، أنت لا تحبها. بالنسبة إليك هي مجرد واحدة

من بين كثيرين.

- هذا صحيح، لكنها لي وليست لك.

- «صاني» عليك أن تكبر وتدرك أن العالم لا يدور حولك فقط.

- هل ستراها مرة أخرى؟

- نعم؟

- حتى لو كان ذلك يعني خسارتي؟

- نعم.

- لماذا؟

- لأن لا شيء يهمني.

- كيف لا يهمك شيء؟

- لا شيء يهم بقدر كل ما يهم. ولكن بعد ذلك، إذا كنت تريد، فسأبقى بعيدًا عنها. هل أنت راضٍ الآن؟

- لا.

- حسنًا، ماذا تريد؟

- أن تمحو ما حدث.

- لا يمكنني التراجع عما فعلته أبدًا. تمامًا كما لا يمكنك التراجع عن كل أفعالك الماضية. تخيل أنك «لونا» وأنني «صاني»، واغفر لي. هذا لن يحدث أبدًا.

- أوه كفاك من «تخيل» «تخيل» هذه! أنت مجنون يا رجل.

- ربما.

- إذا كنت فعلًا مؤمنًا بأفكار «أفلاطون» عن الحب

التي تتحدث عنها طوال الوقت لما ذهبت معها أبدًا.

- «صاني» هل تسمع ما تقوله؟ لقد أخبرتك أنني أؤمن بالضرورة، بالقرب، بالروتين، ولكن ليس بالحب. لا بدَّ أنك سمعتني أقول ذلك. يمكنني أن أقدم لك مئات الحكايات عن فلاسفة آخرين قالوا عكس ما اعتقدوا. لن تجد حقيقة واحدة حتى في الدين. فحتى هذا يقرؤه الناس بالطريقة التي يريدونها.

- اللعنة عليك.

- لا، اللعنة عليك.

***

الراوي



في الوقت ذاته، بعيدًا هناك في مقدونيا، كانت «لونا» ترتعد في الزاوية مثل جرو وهو يهز ذيله في بعض الأحيان. لم يصلها ضوء الشمس. لقد عوملت معاملة سيئة من لحمها ودمها ومن الغرباء أيضًا، حتى أحباؤها ركلوها. ووالدتها لعنت يوم ولادتها:

- أدعو أن يفسد اللبن الذي أرضعتكِ به، وأن تتقيئي كل طعامك. ألَّا يحالفكِ الحظ في الحياة لأنكِ جلبتِ لنا مثل هذا العار.

لم ترغب أختها الصغرى في النوم بجانبها. في الشارع، أخبرها الناس أن «لونا» ممسوسة وجعلها هذا تبكي، وضربت «لونا»:

- لا أريدكِ أن تكوني أختي. يضحك الجميع منِّي بسببكِ. ليس لديَّ أصدقاء بسببكِ. دعي والدتي تمنحكِ لطيور اللقلق.

لم يعد والدها يضربها. الغريب أنه توقف أيضًا عن

توبيخها. كطفل محبط، تجنب النظر إليها وتوقف عن ذكر اسمها. لم يكن يريد رؤيتها أو التحدث معها مرة أخرى. لم يعد هناك حديث على مائدتهم، وخيَّم صمت يصم الآذان على منزلهم. غالبًا ما كانت «لونا» تذهب إلى البركة حيث أحدثت هي و»صاني» تموجات في الماء.

وقفت أمام المياه الساكنة، نطقت بالاسم الذي ستعطيه للطفل الأول الذي ستورثه الطبيعة لهما. رمت الحجارة في الماء، وفي التموجات التي شكلتها الحجارة، رأت «صاني» والطفل. بدأت تتحدث إلى البركة لأن أحلامها الأخرى كانت خاوية. أعطت الطفل اسم «راي»، وكان هو سبيلها الوحيد إلى النور، في آبار الوحدة المظلمة والحب.

***

صاني



جاءت «ماريان» لرؤيتي في ظهيرة أحد الأيام، تمامًا بعد يومين من لقائنا الأخير. لأن الحياة علمتها أن بعض الأشياء لا يمكن حلها إلا يومًا بعد يوم، عندما تكون المشاعر في حالة من الركود.

طلبت التحدث معي خارجًا وأشعلت سيجارة:

- مهما فعلت، سأحبك طوال حياتي. لكن إذا آذيتني هكذا مرة أخرى، فلن تمنعني أي قوة على الأرض من الاختفاء إلى الأبد من هذا العالم.

- و»الفيلسوف»؟

- ماذا عنه؟

- ألم يكن عندكِ منذ ليلتين؟

- «كان». ما علاقة ذلك بأي شيء؟

- ماذا تقصدين، بـ»ما علاقة ذلك بأي شيء»؟ ماذا كنتما تفعلان؟

- لا شيء. أوقفني وصفعني بضع صفعات وشربنا

أكثر، وبعد ذلك كان عاجزًا عن الوقوف. فأخذته أنا و»مارجريت» إلى بيتي لأننا لم نكن نعرف إلى أين نأخذه. كان سكرانًا وميتًا ونام بالخارج على الشرفة.

- هذا كل ما حدث؟

- بالطبع! بكل تأكيد. بماذا كنت تفكر؟

- هل نام حيث أنام؟

- نعم.

- وأنتِ لم تفعلي أي شيء؟

- بالطبع لا.

- كيف تدعينه ينام في المكان نفسه الذي كنت أنام فيه؟

- ما الفرق؟ على أي حال، أنت لا تهتم لأمري، أليس كذلك؟

- لا.

- حسنًا، لماذا تهتم بمكان نوم «الفيلسوف»؟ تريد أن يدور كل شيء حولك يا «صاني»، حتى الأشياء التي لا تحبها. أليس هذا صحيحًا؟ يؤلمك حتى عندما يأخذ شخص ما شيئًا لا تحبه، أليس كذلك؟ لكن هذا لا يؤلمك عندما تكون أنت الشخص الذي يستحوذ، هاه؟

- أنتِ تبالغين في التفلسف.

- أنت غبي، ومعتوه لم يرَ أي شيء في الحياة بعد. أنت لم تستحق أي شيء في الحياة أبدًا. أنت لا تقيم أي اعتبار للآخرين. لا يهمك سوى من بإمكانك الحصول على أي شيء منه. أنت أحمق،

وأناني.. آسفة لم أقصد ذلك. أرجوك قبِّلني.. أيمكنني تقبيلك؟

قلت لها:

- لا.

وصعقتها تلك الكلمة الصغيرة المكونة من حرفين مثل الرعد. أصبح وجهها غائمًا الآن، لدرجة أنني اعتقدت أنها قد يغشى عليها. في أثناء مغادرتها، أعطتني نظرة يعطيها الطفل أباه بعد التصرف بشغب يظن أنه قد يدفع ثمنه طوال حياته. نظرت إليَّ على أمل أن شيئًا ما بداخلي قد انكسر، رغم أنها تعرف جيدًا كيف يتحطَّم الجليد.. جعلني مظهرها أستعيد هيمنتي، ومرة أخرى شعرت بالسعادة.. سعادة مؤلمة.

قلت في نفسي، فقط الفائزون هم من يسجِّلون التاريخ لأنهم في الواقع خسروا.

***

لونا



مرَّت ثلاث سنوات كاملة على رحيل «صاني». ثلاث سنوات أشبه بثلاثة أطفال لم يولدوا بعد.. بحقل غير محروث.. بعشب بري مُهمل. يرتجف جسدي عندما أفكِّر به. يرغب جسدي - لست أنا -في لمسته ومداعباته وإدراكه لكل جزء منِّي وإهانتي. رجلي الذي صُنع خصوصًا لي، إنه هو الذي يتوق إليه جسدي. أنام مع رسائله، تبقيني دافئة مثل أشعة الشمس المبكرة بعد صباح بارد أمضيته في العمل في الحقل. لكنها لا تغرقني في عرقي، كما يحدث عندما تصل حرارة الشمس إلى أوجِّها، قبل أن تنفجر مباشرة. لكن الروح تريد أن تذوب، لا أن تتدفأ. وهكذا أتجول وكأنني مقطوعة الرأس، كما لو كنت بلا حماية، من دون حصن، من دون أي شيء.. أي شيء - كيف يمكنني التعبير عن ذلك؟ - كأنني من دون.. من دون نار تسفعني. نعم، هذه هي الكلمة الصحيحة؛ من دون نار تسفعني، حتى أشعر بأنني على قيد الحياة.

هكذا يمر وقتي، بين دفء أنفاس «صاني» الذي أتخيله والحاجة إلى النار. أحيانًا أجلس في الخارج مع النساء الأخريات ليلًا. ولكن الآن بعد أن كبرت، أصبحن ينتبهن إليَّ أكثر من قبل. لقد اختفى كل أصدقائي. يكتفون بهمس أشياء سيئة عني خلف ظهري، ويبصقون عليَّ بأعينهم كلما

رؤوني. على حين أن الرجال يعبرون إلى الجانب الآخر من الشارع حتى لا يُصابوا بما أصابني، ويهددونني بنظراتهم.

لقد سمعت كل أنواع الكلمات البذيئة في الشارع، وما لم أسمعه كنت أسمعه على أي حال، لأن أحاديث النساء مختلفة تمامًا بالطبع. ذات يوم، سمعت «بارا» مثيرة المتاعب، تتحدث مع جارتها التي لا تغلق فمها أبدًا، واحدة من أولئك العجائز اللاتي أثرت فيهم الحياة، لذلك تبكي روحهم مثل تيار مستمر، ولكن مع ذلك لديهم الطاقة للتفوه بالكلمات الوقحة. هذه المرأة «بارا»، الوحيدة التي تحدثت بوقاحة، في ذلك الوقت الذي كان ممنوعًا فيه التحدث بهذه الطريقة، وقالت لزوجة «ميتسي»:

- يا امرأة، رحل زوجك منذ وقت طويل وساقك ترتجف الآن. أتمنى ألا يكون هناك رجلٌ آخر يفكر في التقرب منكِ، لأن ذلك قد يجعلكِ ترتجفين أيضًا.

وضحكت كالمجنونة. كان من العيب أن تُقال مثل هذه الأشياء أو حتى مجرد التفكير فيها وقتها. ومع ذلك، كانت «بارا» روحًا مبتهجة وممتعة. لقد قُتِل كل من زوجها وابنها في الحرب، إما على يد الصرب

وإما البلغاريين وإما على يد أحد الذين أجبروا على القتال معهم، كان من الصعب تحديد مَن كان يقتل مَن في ذلك الوقت. لذلك سامحها الجميع. عندما قالت ذلك لزوجة «ميتسي»، وهنت ركبتي فجأة. قلت لنفسي: «لم يقترب مني أي رجل منذ وقت طويل، أهذا يعني أنني سأرتجف أيضًا إذا بدأ أحدهم في التقرب مني؟ وأبكي ليلًا ونهارًا لأنني كنت غير مخلصة لـ»صاني»؟

وبكيت. كل يوم، كنت أبكي من الحزن وكأنها رسائل تحثه على العودة إلى الوطن بسرعة.

***

الراوي



بعد كل هذا الانتظار، بدأ نصف «لونا» السفلي في التحرك، لدرجة أنه طلب يدها مرَّة ولكنه انكمش عند لمسه كأن ثعبانًا لدغه. تحولت خدودها إلى لون أحمر أدكن من لون الكرز. تحدث إليها شيء ما هناك بالأسفل، كما حدث في الماضي عندما تلطخ سروالها الداخلي باللون الأحمر أول مرة، وعندما جعلها «صاني» تشعر بـ»الراحة» بعد ذلك بسنوات عديدة. ولكن هذه المرة كان مختلفًا، فقد همست له من تلقاء نفسها، وبشكل غير متوقع، كأنها تبكي من الوحدة. توترت «لونا» وأرادت قطع يدها. كانت تقول لنفسها في مثل هذه الأوقات الغريبة: «هذه الأفكار النجسة مجرد وسوسة من الشيطان». وترد عليه قائلة:

- ابقَ مكانك. اتركني في سلام، وتحلَّ بالصبر. لا أريد أن أثار ولا أن يلمسني حتى ظلي. «صاني» هو الوحيد الذي له الحق في التفكير في، لا أحد ولا

شيء في العالم سيفعل ذلك غيره.

هذا ما قالته، لأن الشعور بالكمال بداخلها ظل موجودًا كالعادة. وببساطة، كانت «لونا» صورة مثالية عن الكمال، لا يضاهيها حتى جبل في الربيع، على عكس «صاني»، الذي كانت تنتظره ببراءة..

آه.. إذا كانت هناك أي عدالة في هذا العالم، حتى ولو قطرة واحدة، فلتنشقَّ السماء مُخرجة طوفانًا يقضي على كل أولئك الذين ضلوا الطريق. لتوبيخ القدر، الذي أصر على أن يقرر الأمور بشكل مختلف عما ترغبها هي و»صاني». ولكن عندما أتت الفتاة المسكينة «لونا» إلى هذا العالم المتداعي، قالت الأقدار:

- لنمرر تيارًا لطيفًا وممتعًا لا يفيض أبدًا من خلالها؛ قد يتجمد برقَّة فقط في الشتاء، بحيث يصبح رقيقًا لدرجة تشققه إذا هبط عليه العصفور.

وقال الثاني:

- عسى أن تنبع قوتها من قلب جبل يحميها كما تراقب الشمس الأرض.

وتجرع الثالث المرارة، وقال:

- لينعم عليها كل شيء كما ينبغي ولا ينبغي. عسى أن يتدفق التيار من قلب جبل، وتختلط بحلم آخر.

ماذا سيحدث لها؟ سنراقبها من فوق.

وقد كان. كان التدفق لطيفًا ولعوبًا، وإن كان ممزوجًا بالمطر الملوث، ومن قلب جبل، يتدفق عكس التيار ويشق طريقه إلى أرض لم يطأها

أحد من قبل. حتى القمة بدت وكأنها ستفيض من الأمطار الغزيرة. حتى مع هطول الأمطار، كان هناك ثلج في منتصف الصيف، غسل الطين القذر. بعد ذلك، تحدث الوقت، وأصدر مرسومًا بأن خطيئة «لونا» الوحيدة هي أنها بقيت الشخص ذاته الذي كانت عليه دائمًا. في حين أن كل شيء تغيَّر بالنسبة إلى «صاني» في أمريكا. وبدلًا من الجبل الذي ولَّد أنقى جدول، ذلك الذي غطى به نفسه في الفراش ليلًا، كان هناك جبل آخر سيلفت انتباهه في المستقبل القريب.. ولكن هذا هو الحال، لا مفر من القدر. سيحدث كل ما هو مكتوب. حتى ولو كنت مختبئًا داخل قرن ثور،

فسيجدك.. سيجدك بالطريقة ذاتها التي وجد بها «لونا»، التي ستدرك أن احمرار خدودها الكرزي كان لرجل عكَّر المياه منذ وقت طويل.

***

صاني



بعد «ماريان»، تلاشت رغبتي في «لونا» تمامًا..

الراوي



عذرًا «صاني»، لكنني أود أن أقول شيئًا.

بعد «ماريان»، بدأت رغبة «صاني» بـ«لونا» تتلاشى أكثر فأكثر، وأعتقد أنه كان أسرع من لحظة غرق السفينة التي أوصلته إلى أمريكا. كان يدرك منذ فترة طويلة أنه إذا اختار اليسار، فإن اليمين يختفي فورًا. كان واضحًا مثل صوت العندليب، أن طعم فطيرته لن يكون كما كان من قبل، لأنه لم يعد الشخص نفسه الذي يتذوقها. كان يدرك أيضًا أنه لم يكن في إمكانه تجنب دهن الخبز بالزبدة على كلا الجانبين فحسب، بل كان يمنع نفسه بالكاد من تناول أي شيء باستمتاع. لقد تألم حتى البكاء من حقيقة أنه من الآن فصاعدًا.. لا، ليس من الآن بل منذ بعض الوقت، أن التموجات التي تركتها أجسادهما ذات مرة على البركة، تلك الدوائر المثالية التي أنشأها وجودهما والتي تلاشت ببطء لامس شواطئها، لن تكون أبدًا كما كانت هي عليه من قبل..

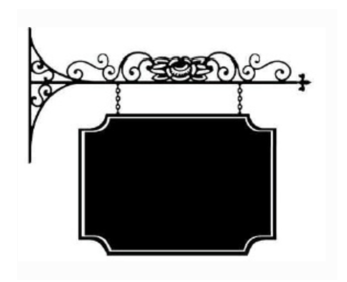
وبالنسبة إلى «لونا»، كان الأمر أبعد من ذلك.

كان يعلم أنه بدلًا من وجود تموجين في الماء، سيظهر واحد فقط. لم يمتلك القوة لتغيير الأشياء بعد. لقد رأى بالفعل تموجًا واحدًا في ذهنه، من صنع جسد واحد.. جسده.

وصار البكاء بلا صاحب أو هوية.

***

صاني



شكرًا لك أيها الراوي.

وغرق وتلاشى. يجب أن تتحول أفكاري الآن إلى ما عليَّ فعله من الآن فصاعدًا، لأن الوقت لا ينتظر. وإذا لم تتقدم فإنك ستتراجع، لأنه لا يوجد «وقوف بلا حراك». هذا المفهوم غير موجود. هذا ما قلته لنفسي وأنا أتساءل في الوقت ذاته؛ ما الذي يجب أن أفكر فيه، وماذا أفعل، وما الخطوات التي يجب اتخاذها في هذه المعركة مع شياطيني، وميولي، وعواطفي، وكبريائي؟ يا لها من كلمات جميلة للتعبير عن خطيئتي، كل شيء ينتهي بالحرف «ي».. مثل متعتي تمامًا. وكل شيء تعلمته في أمريكا. كل ذلك محفور داخلي كسمة مميزة تمنحها الحياة لأولئك الذين تعلموا الكثير منها، والتي تبقى مدى الحياة، ولا يمكن محوها، وهذا ما يميزني عن الآخرين الذين لا يعرفون شيئًا عن مثل هذه الأشياء، وحتى عن «لونا».. حتى عن» لونا».

آه.. كما ذكرت من قبل، كانت الموسيقى ضارتي

النافعة. لقد أخذتني بعيدًا عن تلك المغامرات المألوفة التي ذهبت إليها ليلًا عندما كنت عاجزًا حتى عن الوقوف بمفردي. لكن صدقني، لم تكن مجرد ليلة أو ليلتين.

من البداية، كنت مدركًا أنني حتى إذا حاربت نفسي بترسانة عسكرية واسعة النطاق كما أنا عليه الآن، فلن أفوز حتى بمعركة واحدة صغيرة، ناهيك بالحرب. لقد عقدت العزم، أو لكي أكون أكثر دقة، كنت أرغب بشدة في اتخاذ قرار الذهاب إلى تلك الأماكن التي لا يوجد فيها شيء يمكن أن يفسدني. وفي إحدى الليالي، ظهر هذا المكان كما لو كان من العدم، عندما أخبرتني الخمر أنه هناك، وليس هنا. دخلت أنا و»الفيلسوف» (نعم، نعم، عدنا أصدقاء مرة أخرى) كوخًا متداعِيًا خشبيًّا، مصنوعًا من ألواح خشبية غير ملوثة ومنشورة يدويًّا، وألواح صفراء معقودة ظهر عليها عمر الأشجار بوضوح.

في الداخل رأيت مجموعة من الزنوج، كلهم كانوا يحدقون إلينا متفاجئين كما لو كانوا يقولون لأنفسهم: «ما الذي يريده هذان بحق الجحيم؟ ما الذي يفعلانه في مكاننا؟ يلوثونه بلون آخر؟».

على الرغم من أن الأشخاص البيض لم يذهبوا إلى الأماكن التي يرتادها السود في تلك الأيام، تحدث «الفيلسوف» إلى أحد الرجال السود الذي قال شيئًا للآخرين، ثم أجلسونا في البار وقدموا لنا بعض الويسكي لنشربه. عندما يكون المرء صديقًا مقربًا للكحول، فإن الأمر يكون كما لو وقع في حب نفسه،

ومن ثمَّ لم يكن هناك شيء غريب كما كان بالنسبة إليَّ. وزارتني معجزة تلك الليلة، مرتين. ظهرت بوجهين وجعلتني أولد من جديد.

على الرغم من أنني كنت قد رأيت وسمعت أشخاصًا سودًا يغنون مرات تعد ولا تحصى، فإن كل شيء كان مختلفًا هنا. أولًا، بدأت ثلاث أو أربع نساء زنوج في الغناء وكأنهن منتشيات. من حسن الحظ، رأيت حالات من النشوة مثل هذه من قبل، وإلا لظننت أن الشيطان قد استولى على أجسادهم وكان يؤدي رقصة ترحيبية رائعة. انضم الموسيقيون على الفور إلى النساء، كانت تفاحة آدم بارزة عندهم كما لو كانوا إخوة. لا أعتقد أنني رأيت مثل هذا الفرح على وجوه الناس من قبل. كانت شخصيات منكوبة بأيدٍ خشنة كالقطن؛ تظهر نعومتها حتى من خلال أشواكها الحادة، تعزف موسيقى ناعمة كما لو كانت قد انتُزعت من القطن، مانحة نعومتها لنستلقي عليها، ليس لتنام عليها

ولكن لتطفو على أثيرها، مثل الأطفال الصغار.. مثل الطفل الذي يلعب مع الأب الذي لم يره منذ فترة طويلة.

هذا النوع من الحماسة لموسيقاهم كانت مماثلة للموسيقى في بارات البيض. ولكن الموسيقى التي عزفها هؤلاء الأشخاص كما لو أنهم ولدوا منها وليس العكس، جذبتني للعودة عدة مرات، على الرغم من أن الجميع قد أخبروني أنني سأواجه مشكلات كبيرة مع أولئك الذين يرتدون الجلباب وأغطية الرأس. قالوا لي:

- سيقطعون شيئًا يجعلك عاجزًا عن التبول.

قال «ميتسي» إنه كان قلقًا من تسكعي حول هؤلاء الغجر القذرين، الذين لم نكن نهدر بصاقنا عليهم في الوطن. وزادت كلماته وتحذيراته بقدر ما تجاهلتها، لأنه لا يجب عليك أن تحكم على الناس من أصولهم بل من ثمارهم، ولأن الدم ذاته يجري في عروقنا، ويفكرون مثلما يفكر الجميع.

في الواقع، أنا شاكر لـ»ميتسي» من هنا حتى القمر، لأن نصائحه علمتني كيف لا يجب أن تسري الأمور. ليس صعبًا ملاحظة أحد هؤلاء الأشخاص الذين يتحدثون أكثر مما يتصرفون. وعبر فعلك العكس تمامًا، ستتعلم ما عليك فعله في الواقع. كان «ميتسي» مثل أي شخص آخر في العالم تقريبًا. الرجال الذين يضاجعون العاهرات كانوا أبطالًا بالنسبة إليه. اشترى سعادة قصيرة العمر بماله. لم تكن يداه القذرتان عقبة أمام دفعه أجره الأسبوعي على العاهرات وأصدقائه المزعومين، الذين تلاشوا مع آخر جزء من ماله. كان يحلم دائمًا بفعل شيء تقليدي ولم يجرؤ أبدًا على تخيل أو التفكير في فعل شيء فريد يميزه، وليس تقليدًا باهتًا لشخص آخر، يدل على أقل قدر من المبادرة. حتى ذهابه إلى أمريكا كان اقتداءً بابن عمه، الذي قيل إنه أنجح أفراد الأسرة. كان «ميتسي» يساعد الآخرين فقط عندما يضطر إلى ذلك، ويخرجهم من الوحل الذي غرق فيه هو. ويتعثر هو في الهراء الذي صنعه بنفسه، لكنه ادعى أن شخصًا آخر قد أعده له. ويفكر

دائمًا في الفوائد المحتملة التي يمكن اكتسابها من خلال مساعدة شخص أقوى منه بكثير؛ لأن القوي بالنسبة إليه هو الأساس المتين الذي يستند إليه، وليس مجرد برج عالٍ ضعيف لا يمكن رؤية قمته.

لم يكن «ميتسي» خبيثًا، ولا حتى بأقل درجة ممكنة، ولكن أليس الخواء أيضًا نوعًا من الخبث؟ لا أعرف، لست ذكيًّا بما يكفي لأؤكد لكم ذلك. لكن، إذا فكرت في الأمر، أقول لنفسي: «إذا لم تقم بتوجيه وتحويل المياه التي تتدفق فوق بذورك، بدلًا من أن تروي حقلك كل مرة، سوف يغرق حصادك في الماء أو ستفسده الشمس». كان في حاجة إلى الاعتدال، مثل أي شيء آخر في العالم. لكن «ميتسي» لم يكن يعرف الاعتدال. لا في الشرب ولا في التباهي، ناهيك بالكذب.

إذا نظرت العاهرة الأكثر شهرة في جميع البارات إليه مصادفة، كان يقضي الأسبوع بأكمله يخبر الجميع بأنها ملكه، وأنها وقعت في حبه، ويصف مطولًا كل ما سيفعله بها، وأنه سيجعلها تفيض لدرجة أنها لن تحلم برجل آخر. لم يكن يبكِي كلما شعر برغبة في البكاء. بدلًا من ذلك، كان يقنع نفسه أنه لم يكن على ما يرام، وأنه لم ينم جيدًا في تلك الليلة لأنه كان يفكر في عائلته، بما في ذلك زوجته. تلك التي لم يقل كلمة طيبة عنها أبدًا عندما كان في الوطن، أو لأكون أكثر دقة، التي لم يقل كلمة طيبة عنها حتى عندما غادر المنزل. الشيء الأكثر إثارة للاهتمام في «ميتسي» هو أنه يعرف كل شيء،

ولديه ما يقوله عن كل شيء. كان لدى «ميتسي» المسكين قصة ما في كل مناسبة. لم يعترف قط بأخطائه، أو حتى يلاحظها. ومهما كان شكله في البداية، فإن هذا العمى يُظهر نفسه لاحقًا في غياب السعادة والأصدقاء الحقيقيين.

ومثل هؤلاء الناس الذين يبدؤون حياتهم بهذه القصة أو تلك، وليس بقراراتهم وأفعالهم، يفسد هذا حياتهم ويمنعهم من أن يكونوا، كما كان من الممكن أن يكونوا. الأدهى من ذلك، كما لو أن هناك قانونًا غير مكتوب، يخبرون بموجبه الجميع عن حياتهم، ربما لأنه ليس لديهم أي شيء آخر ليقولوه. وهم منشغلون كما هم بمصيرهم، ولا يبذلون أي جهد لتغييره. لم يكن هناك شيء مهم بحق يجبر «ميتسي» على التصرف مثل الفأر الذي يستسلم وكله أمل في الحصول على لقمة.. قضمة واحدة فقط من الجبن. ذلك الجبن الذي كان يلعق من أجله جراحه طوال الأسبوع، في

المصيدة المطبقة على ذيله. ولم يحدث شيء كبير حقًّا، لكن كان هناك العديد من أمثال «ميتسي». كانت الغالبية هكذا، ولكن في قوالب مختلفة.

لنعد إلى القصة. كما كنت أقول، كان أمثالي غير مرحب بهم في ذلك المكان، ومرحب بنا في الوقت ذاته. يعتمد الأمر على الطريقة التي يُنظر بها إلى المرء، أو شيء من هذا القبيل. التقيت هناك أهم مطربة في العالم. عجوز سوداء، تعرف النوتات الحلوة والنغمات المرَّة، وتطلق أفضل

الأغاني بصوتها الخشن. غنت أيضًا في البارات المخصصة للبيض فقط، كثيرًا ما كنا نقابلها هناك. كان «الفيلسوف» يخبرها أنها كانت حكيمة مثل شيخ حكيم، على حين اشتريتُ لها المشروبات، وأطلقت عليها اسم «مايسي» - تعني الجدة باللغة المقدونية - والتي كانت تضحك منها كطفل. حاولت مناداتي بهذا أيضًا بلغة مقدونية مكسورة. كانت «مايسي» امرأة عظيمة. كان اسمها «روكسانا». قلبها ناعم كالقطن.. كانت جبلًا، جبلًا قلبه ناعم كالقطن، خرجت منه صرخاتها ضحكًا.. هذا ما كانت عليه «مايسي». امرأة أنجبت ثلاثة أطفال بيض وثلاثة أطفال سود من أربعة رجال مختلفين، لم يكن أي منهم «الرجل الصحيح».

كانت «مايسي» تقرأ الطالع أيضًا. أمسكت بكفي، ومررت إصبعها على الخطوط، ثم تركتها، ونظرت إلى عينيَّ بدلًا من ذلك. في حالة «الحلم» الغامضة تلك، التي لا أكون متأكدًا فيها أكان أي شيء حقيقيًا حتى، سواء حدث كل شيء بالفعل أم لا.. يبدو أنها قالت ما يلي، سأروي لكم بكلماتي الخاصة:

- «مايسي»، استمع إلى «مايسي»، أنت طفل لطيف. أنت لا تمانع في أن أدعوك بالطفل بالطبع، فأنت طفل بالنسبة إليَّ. ستلتقي قريبًا امرأة ليست لك. ستكون مثل نهر بلا مجرى، ومحيط بلا حوض. لكن صَدِّق عظامي العجوز هذه، عندما أخبرك أنني أعلم أنه لا توجد قوة على الأرض ستمنعك من التوجه نحو المجهول. لأنك عندما لا تعرف إلى أين

تتجه، عندها فقط ستختار المسار الذي يسيطر على عقلك وجسمك. وبالنسبة إليك، هذا الطريق هو الذي تتجه إليه الآن. لا تهتم بما تقوله «مايسي»، لا تهتم. أنا لست قلقة عليك لأنك أحد هؤلاء

الأشخاص الذين ينظرون إلى ندباتهم بخوف ومن دون خوف في آن واحد. ومع ذلك، لا يمكن محو هذه الندبات. ستبقى كهدية من رحلتك، من الغضب المخزن بداخلك، كعلامة مصاحبة لك. سيحفظونك إلى الأبد، يا طفلي العزيز. لكن هذا هو طريقك، هذا هو نجمك، مصيرك أن تغرق في الندبات إلى الأبد. لكن صدقني، كل الندبات متشابهة.. كلها. وإذا لم تكن تملك أيًّا منها، فكأنك لم تعِش أبدًا. إنها شر لا بد منه، يا طفلي العزيز. الآن استمع لي، ابقَ هنا بعض الوقت، ثم عد. من الأفضل أن تعود إلى منزلك الصغير، إنه أفضل بكثير، لطالما كان كذلك. إذا استمعت لما أقوله، فلن تخطئ. أخبرك بهذا كأمك، على الرغم من أنني أعلم أن طريقك ليس مقدَّرًا له أن يتبع كلامي.

عندما قابلت روح «مايسي» أول مرة، طار قلبي من تلقاء نفسه إلى مقدونيا، لأطمئن على جدتي.. لمعرفة أورَّثت جسدها للأرض إلى الأبد أم لا.

***

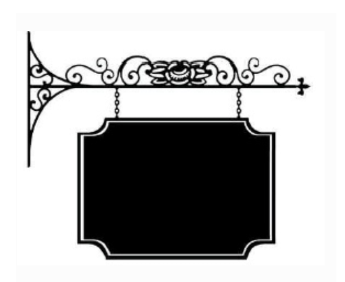
الراوي



عندما تترك أثرًا لنفسك في أكثر من مكان، يصبح لك أكثر من وطن.

كان انفصال «صاني» عن «لونا» - الانفصال الجسدي بين بلدين - على وشك الانتهاء. لكنه لم يكن يعرف ذلك. بدأ كل شيء عندما التقى فتاة جديدة عن طريق «مايسي». وذلك عندما ظهرت من الأعماق المظلمة نقاط اللاعودة. اتجهت رجولته الجامحة إلى الطريق الخطأ. لقد تعثر، وسقط في أبعاد جديدة على ظهر أجنحة الهجر.

صاني



وكما تنبأ حلم «مايسي» الذي تحول إلى حقيقة، قابلت «جوان». قالت «مايسي» إنها اعتنت بها عندما كانت صغيرة. والآن تأتي سرًّا لتسمع غناء «مايسي» في البارات المخصصة للبيض فقط. كانت تشبه «مايسي» إلى حد كبير. لكنها لم تكن ذكية جدًّا، ولكنها كانت مقبلة على الحياة مثل دبور، مثل سرب دبابير. بدا لي أنها ستبدأ في الرقص، وتنظر إلى عينيَّ دون أن ترمش، وتتصرف مثل عفريت مؤذٍ، وتختفي هكذا، بالطريقة ذاتها التي تصرفت بها مع «ماريان» تمامًا. لم أكن متأكدًا مما سيحدث بعد ذلك.

صرت أتردد على البار أكثر وأكثر، وتعاقبت الفصول، وبدأت السماء تمطر من العدم. امتلأت روحي، وهذا ما أفسح المجال لمزيد من الشغب. لمَّحت عينيها إلى وجود أبعاد جديدة، لكنها لم تقترب مني قط. تكوَّن فيضان داخلي، واندفع إلى عينيَّ، مثل صرخة بدائية. كلما اشتريت لها مشروبًا،

كانت تأخذه وتختفي مثل السحابة. لقد سلبت مني كل القوة. لم يهزها شيء. لم يؤثر فيها شيء. شعرت وكأنني «ماريان»، شعرت كما شعَرت عندما نظرت إليَّ وتجاهلتها تمامًا. نزلت لعنة من السماء الجامحة، وتولى جانبي الضعيف القيادة. لم يكن لديَّ أي خيار آخر. بطريقة ما، عظام الخد المرتفعة تلك التي قد تجرح من يلمسها.. عليَّ مداعبتها. أخبرتها أنني سوف أجعلها تسبح في

شواطئ لم يطأها أحد من قبل، وأنني سأورثها تنهدات سلسة، وأنني سأقودها إلى مركز الدوامة، لكن كل ذلك كان بلا جدوى.

واكتفت بالضحك منِّي. رأيت نفسي فيها، ورأيت «ماريان» فيَّ. الأدوار معكوسة لأول مرَّة. شعرت كما يشعر الحذاء عندما يكون في القدم الخاطئة. انساب الدم من وجهي، وصرت شاحبًا، مثل القمر المحاط بالسحاب في وضح النهار. حاولت الهرب لكن دون جدوى.

سرت القشعريرة في جسدي من أفعالي، تلك التي كانت بعيدة عن متناول النساء الأخريات. لقد تسلقت ارتفاعات شديدة الانحدار، ودست على آثار أقدام لم يعبث بها أحد، ورفضت ثمارًا غريبة من أشجار الغابات المظلمة. عويت مثل مستذئب ليلة البدر، وأطلقت صرخات غير مألوفة، كنت أهتز مثل حجارة متساقطة. مددت يدي بلطف نحوها، ورأتني هي كطفل يتدلى المخاط من أنفه.

بقيت في المنزل وحاولت أن أفكر مثلها، ما الذي تريده من الرجل؟ لم يخطر في بالي شيء، بالطبع

لأنه لا يوجد منطق في العاطفة. لم يمر يوم لم تبصق فيه في وجهي وتهرب بعدها. تفر بلا سبب، كأنها تطارد ظلها. وضحكت، كأنها تضحك على الأشجار لأنها لا تستطيع الهروب من جذورها. أمسكت بها في غابة مخفية، لكنني لم أظفر بعناق حتى في الظلال البرية، وضربتني، كما لم يفعلها والدي أبدًا. أمطرت عليَّ بوابل من القبضات، وضحكت مرة أخرى.

بصقت الدم عليها، وأعطتني نظرة دموية، ثم اختفت مثل عاصفة في أوجِّها.

في اليوم التالي أردت الذهاب لرؤيتها مرة أخرى.

***

الراوي



لا، لم يذهب لرؤيتها في اليوم التالي، أو اليوم الذي يليه، حتى إنه توقف عن الشرب. اقتصر حديثه فقط على الماء، والطرق، والفتات. ارتدى زيًّا قديمًا وخرج لرؤية «نيويورك» مرة أخيرة.

الراوي



في هذه الأثناء، استشعرت مقدونيا غضب مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين؛ فقد حصل الجميع على ألقاب جديدة. مع أنهم لم يركلوا شواهد قبورهم أو يتبولوا عليها، لكنهم كانوا يشوهون اسم الأمة.

في الحانة



- إذن لقد غيروا اسمك أيضًا، ها «ماندزا»؟

- نعم، اللعنة عليهم جميعًا إلى الجحيم، لكن لا تدع أي شخص يسمعني. اسمي «ماندزيش» الآن. لقد جاؤوا هنا، عسى أن يمحوا من على وجه الأرض، وسألوني ما هو اسم جدي، ما هو اسم جدي الأكبر. قلت لهم: «تودور وجوتشي». قالوا: «حسنًا، حسنًا، يا صاحب البار، من الآن فصاعدًا أنت «تودوروفيتش»، سيكون هذا اسمك». هذا ما قالوه، وانطلقوا، عسى أن يحرمهم الرب من الخبز، ولكن قبل مغادرتهم، توقفوا وقالوا: «انتظر دقيقة، انتظر، لقبك «ماندزا»، أليس هذا صحيحًا؟ حسنًا، من الآن فصاعدًا ستُعرف باسم «ماندزيش». انسَ أمر «تودوروفيتش»، هذا اسم صربي جدًّا بالنسبة إليك، أيها البلغاري اللعين». هذا ما قالوه، عسى أن يصعقهم البرق!

- يا أولاد، لقد أخبرتكم أنه في يوم من الأيام سنُجرَّد من أسمائنا جميعًا، لكن لا أحد يستمع للكاهن. كلكم تعتقدون أنه مجرد أحمق يثرثر

بالهراء، الآن عرفتم قيمتي!

- لكن يا أبانا، هل سيكون من الأفضل لو كنا جميعًا بلغاريين؟

- سيكون من الأفضل لنا ألا نكون شيئًا. هذا كل ما لديَّ. لأننا حتى الآن كنا هكذا، لقد كنا كذلك، والآن ننظر إلى ما أصبحنا عليه؛ ثمار يقطين، هذا ما أصبحنا عليه.

- حسنًا يا أبانا، وما الذي حصلت عليه من كونك مقدونيًّا؟ هل قبعتك أكثر استقامة من تلك التي يرتديها الصرب؟

- يمكنني العيش من دون قبعة، لكنني أريد أن أخبركم بشيء آخر. التبول على جذور الرجال هو مثل البصق على موتاهم تمامًا، وهم لم يهتموا بنا على الإطلاق.

- أبي، اصمت من الأفضل لك. أنت تتحدث كثيرًا، عندما تسحب كلامك مستقبلًا لا تسأل عن السبب!

- «كول»، خيرٌ لك أن تذهب إلى قبر جدك واسأله أأعادوا لسانه هناك.. ذلك الذي قطعه الأتراك..

- أبي، كان جدي أحمق. شرب مع «متمردي الكوميتي» في الغابة، حيث كانوا ينامون كالماشية، ولماذا؟ حتى ينتهي به الأمر بقطع لسانه. لم يتسبب سوى بالمشكلات في المنزل.. حتى أكثر من الأتراك.

- «كول»، غفر الله لك ذنوبك أنت وأمثالك. ولكن يبدو أن لديه وظيفة أكثر أهمية من ذلك، لأنه لم يقم بفك قيودنا أبدًا، ويبدو أنه لن يفعل ذلك بالنظر

إلى الطريقة التي تسير بها الأمور هنا.

***

صاني



وانطلقت مرة أخرى. صعدت مرة أخرى على متن سفينة رغمًا عني. سادني شعور باللامبالاة؛ لم أشعر بالرغبة في العودة إلى الوطن أو البقاء هنا. فكَّرت كثيرًا على السفينة، كان واضحًا لي أنه لم يعد هناك شيء يثيرني أو يخيفني. لم تكن لديَّ رغبة خاصة في رؤية «لونا» أو أي امرأة أخرى. مللت من التفكير، كل شيء يشعرني بالملل. شعرت كما لو أنني أصبحت جثة هامدة، بكل بساطة، لم أعد أهتم بأي شيء.. عدت إلى موطني الذي كان قد ساده بالفعل غضب مملكة الصرب والكروات والسلوفينيين. ذلك البلد الفقير، الذي كان دائمًا مقسمًا، لمصلحة الدول الجامحة التي جعلت احتياجاتها أولوياتها متجاهلة عواقب ذلك، مثلي تمامًا.

مقدونيا البريئة التي تعاني منذ زمن طويل، في قبضة الآخرين دائمًا بسبب رغبتهم، - مثل رغبتي -

تمامًا في الرضاعة من أثداء عديدة لامتصاص كل شيء لصالحهم - مثلي - ولاستنفاد جميع مواردها لري حقولهم، غير مبالين بالناس في تلك الأرض. بأنهم لا يستطيعون زراعة محصولهم، أو جني ثمار عملهم بسبب هؤلاء، بسبب أولئك الذين يريدون كل شيء لأنفسهم فقط.

كان موطني مثل «لونا»، إذا جاز التعبير؛ في انتظار القوة لتغيير الواقع لأن الآخرين كانوا دائمًا أقوى منها. لو لم يكن الأمر كذلك، لو كان وطني أقوى، لربما كان مثل الآخرين. كان سيحرم

الآخرين من سعادتهم وفرحهم، كان سيقتل الآباء والرجال، كان سيحطم أسنانهم في أفواههم، ويجبرهم على ابتلاع لغتهم الأم والاحتفاظ بها لأنفسهم. كان من الممكن أن تُغتصب الأمهات أمام أطفالهن، كما هو مكتوب أن مثل هذه الأشياء الحقيرة التي لا يمكن تصورها قد فعلتها لنا دول أخرى. لكن هذا لم يحدث بعد، ولا داعي لأن نفترض أن الأمور ستجري هكذا. على الرغم من أننا إذا سمحنا لأنفسنا بافتراض ذلك، فسنرى أن الأقوياء يطبِّقون سلطتهم الغاشمة دائمًا، في حين أن أولئك الذين لديهم قوة وسلطة أقل والذين ينتفضون ضدهم يظهرون ذلك أكثر.

ولكن، كما كنت أقول، عدت إلى المنزل، وكان لقائي الأول مع الجيران الذين خرجوا تحية لي للجيوش الأجنبية التي جاءت إلى بلدتنا خلال الحرب العالمية الأولى، وأخذت جميع الرجال، للقتال في صفوفهم.

رآني الجيران بالطريقة التي رأيت بها الجنود من خلال عيون الطفل الذي كنته، كشخص غريب، ومتطفل بملابس مختلفة، تقدَّم سنه قبل الأوان، ولكن الفرق أنني لم أجبر رجالهم على الحرب. بدلًا من ذلك، قدمت لهم هدايا صغيرة جعلت أسنانهم تقرع من الفرح، بالطريقة ذاتها التي كانوا يخشون بها الجيوش المختلفة، سواء كانوا بلغاريين أم صربًا ومن يعرف ماذا أيضًا.

قبل أن أرى «لونا» مباشرة، جف فمي ولم يخرج من حلقي أي صوت، وهذا ما جعلني سعيدًا مثل أول مرة حدث لي فيها ذلك لي، كطفل يحمل قطعة خبز في يده، ولكن هذه المرة، كرجل بالغ لديه نقود في جيبه. عندها فقط ربحت يد «لونا»، التي سحب والدها كل كلماته السابقة بمزاح، مستمتعًا بقطع الذهب اللامعة التي من شأنها أن تمنحه عطلة من التعفن في الحقول لعام. يمكنه التباهي بصهره في البارات، وبعد ذلك سيشرب بكل المال، ويعود إلى حياة الشقاء.

في تلك الأوقات، هكذا كان يغيِّر الناس مصير الآخرين، أحباءهم. في بعض الأحيان إلى الأفضل، ولكن في أغلب الأحيان إلى الأسوأ.. إلى الأسوأ. وكل ذلك من أجل مائتين أو ثلاثمائة «راكيا» مجانية في البار، والاستيقاظ في السادسة صباحًا بدلًا من الثالثة.

الراوي



في اليوم ذاته الذي عاد فيه، ذهب «صاني» إلى قبر جدته. وللمرة الأولى والأخيرة سألها عن كل شيء:

أعرفت حقًّا كيف تحسب الدموع؟

ماذا تسمِّين الفرح؟

أكان وجهها أم روحها التي كبرت أسرع؟

كيف كانت تبدو عندما كان وجهها مختلفًا؟

ماذا شاركت روحها قبل رحيلها؟

في الليلة التي ولدت فيها، أصلت أكثر أم شعرت بالفرح؟

أحسب القديس «بطرس» سيئاتها عند أبواب السماء؟

لماذا كل يوم تقريبًا، إذا كانت ذكريات طفولتي صحيحة، كنتِ تذهبين إلى زيارة قبر جدي؟

في ذلك العالم الآخر، ألا يزال جدي يعاني جرح

الرصاصة التركية؟ وهل هما الآن معًا مرة أخرى هناك؟

أيخبرها هناك أيضًا أنه لا أحد يصنع الـ»مازنيك» مثلها، كما كانت تخبرنا؟

وعندما يقول لها هذا، أتطلق صوت صرير من الفرح، كما كانت تفعل كلما تذكرت كلماته ويداها مغطاتان بالدقيق الأبيض، كما لم يكن قدرها؟

وهل أصب جرعتين من «الراكيا» على قبرها، كما كانت تقول، حتى تعطيها لجدي الذي لم أره قط، لأنه كان يود أن يشرب أكثر، لكنه لم يفعل ذلك أبدًا خلال حياته؟ لم يكن لديه الوقت لذلك.

كم عدد المصاعب التي جرفتها تحت السجادة، ولم تتقاسمها مع أي شخص آخر في هذا العالم الواسع؟

وقف قبرها مثل صخرة فوق تلة جرداء، وهي تهمس بهدوء مع الريح، صار وحده ولم يعد هناك أي شخص بعد الآن. كررت الريح كلام جدته:

«هكذا هي حياتنا الوحشية: أنت هنا اليوم، وغدًا غير موجود. ونأخذ كل شيء معنا إلى الأرض، كما لو أننا لم نكن حتى موجودين. يبقى شيء واحد فقط، هذا إذا كنت قد فعلت بعض الخير في حياتك. سيشق هو طريقه إلى مكان ما، ليُعرِّف أننا لم نكن هنا هباءً، وإذا كنت قد كرهت شخصًا ما، فسيظل كذلك. لا شيء آخر.. ولكن ربما، بعد كل شيء، هذا ليس بالشيء الهيِّن في هذا العالم البغيض».

***

الراوي



في حانة «ماندزا»:

- مرحبًا، «ماندزا». أوه، عفوًا، قصدت أن أقول، سيد «ماندزيش». لماذا شحب وجهك؟ أهرب شخص ما دون دفع الفاتورة؟

- اجلس مكانك وكن هادئًا إذا كنت تخطط للبقاء. لا تغرني.

- لماذا؟ أستبصق في طعامي إذا لم أفعل؟ كنت ستفعل ذلك دون سبب وجيه على أي حال، ها ها.. ها ها..

- هيا «ميتري» لا تثر أعصابه.

- «ماندزا»، هيا، أثرها أكثر. ها ها ها ها..

- حسنًا، بالأمس كنتما على استعداد لقتل بعضكما بعضًا، واليوم أنتما أعز الأصدقاء، أيها السكارى الملعونين. ماذا ستشربان؟

- أعطنا ما لديك. لنشرب بعض «الراكيا»، كأن هناك

أي شيء آخر يمكن العثور عليه هنا. أعطنا «راكيا» وبعض السلطة. ثم أعطنا بعض النبيذ والدجاج. لن تفعل ذلك، أليس كذلك؟ أم تريد بعض الأضلاع؟ أم يجب أن نطلب بعض قطع اللحم؟

- انظر هنا.. قدم لنا بعض قطع اللحم. انسَ تلك الدجاجة. الدجاج يؤكل في المنزل، وليس في البار.

- حسنًا إذن. «ماندزا».. عفوًا.. عفوًا، لقد فعلت ذلك مرة أخرى. قصدت أن أقول السيد «ماندزيش». استمر بعد ذلك، واسأل ما الذي يريده الزبائن الآخرون، حتى تزيد من أرباحك قليلًا.

- أوه، «ميتري»، لقد هدأت أخيرًا، أليس كذلك؟ جيد جيد. عافاك الرب.

- مرحبًا، صهري «بيتسي» أترى كيف يكون القدر؟ لا يمكن للرجل أن يكون متأكدًا مما سيأتي به اليوم ولا حتى هذا العام. من كان يظن أنني سأجلس معك على الطاولة نفسها؟ لا أحد. بل ونشرب معًا أيضًا! ولكن هذا ما حدث. لأكون صريحًا معك، قلت لزوجتي: «أنا؟ أصاهر هذا الرجل؟ وأرقص معه «الأورو»؟ على جثتك!»، قلت لها: «أرقصها مع الجرذان ولا مع ذاك الرجل». هي هي، أنت لست غاضبًا، أليس كذلك؟

- اللعنة، أغضب من صهري؟ حسنًا، ما الذي لم أطلقه عليك من قبل؛ قملة، قرادة. من يعرف إلى ماذا حولتك أيضًا. ولكن إليك الأمر، أُقيم حفل الزفاف بالفعل. هيا انسَ كل ذلك، ماذا سنفعل غدًا؟ نسد الثقوب في أسقفنا أم نذهب إلى الصيد؟

- الصيد بالطبع. أقلت «نسد الثقوب في أسقفنا»؟ ها ها. لطالما كانت هناك، فلتنتظر يومين إضافيين.

- حسنًا، لنشرب نخب صحتنا. نرجو أن يهب الرب أطفالنا أحفادًا كي تتكاثر عائلتنا. وعسى أن يكبر أحفادنا حتى يشدوا شواربنا.

- هذا من حسن حظنا.

- في صحتك.

***

صاني



كنَّا عاجزين عن الإنجاب عامًا أو أكثر بعد حفل الزفاف. كنَّا نحاول في أقصى مناطق الغابة، حيث لم نكن من قبل. غصنا في أعماق الحب، وقسمناه نصفين، وحفرنا له حتى يتجذر في الأرض. شربنا معًا من الينبوع الذي تغذى به فيض رثاء شبابنا الضائع. كان كل شيء على حاله، ولم يكن شيئًا على حاله. كان الأمر كما لو أن سيلًا من الحمم اندفع بداخلنا أول مرة، مرسلة نوعًا مختلفًا من الألم بين فخذينا، وهو إحساس جديد لم نشعر به من قبل. أظهرت عينا «لونا» أن شيئًا ما قد بدأ يتحرَّك داخلها، يدغدغها، ويداعبها من أعماقها، ويهدئها مثل صوت بعيد من كهف قريب. ثم أطلقت نوعًا مختلفًا من الأنين، وانسحب جسدها بعيدًا عني كأنها احترقت. قلت لها:

- ما هذا؟ ما الذي فعلته؟

بينما كشفت الطبيعة من حولنا أنها شعرت أول مرة برعشة جسدين وصلا ذروتهما وتبللت الأرض

بحق. قالت «لونا»:

- مهما كان.. لا تتوقف.

قالت لي ذلك بعينها، لأنه وفي تلك الأوقات، كانت الكلمات لا تزال خجولة جدًّا للحديث عن مثل هذه الأشياء.

***

الراوي



وهكذا، حققت «لونا» حلم أغلب العرائس الجدد عندما اكتشفت شيئين في اليوم ذاته؛ أن غشاءها انفض بالكامل أول مرة، وبلغ ذروته في صرخة حسية تختبئ بين فترات «الاستراحة السرية». وبطريقة ما، شعرت أن هناك نعمة تولد داخلها، والتي بدورها خففت من حدَّة الشمس. وكما دعت الأقدار، تدفق تيار لطيف وممتع عبرها مرة أخرى، وملأ بذرتها بالدفء حتى لا يتجمد تيارها إلا ليكوِّن طبقة رقيقة هشة بما يكفي ليخترقها عصفور. لقد تدفق تيارها عكس التيار، وشق طريقه في أرض لم يطأها أحد من قبل. وكانت قوتها نابعة من قلب جبل وكانت الشمس كعادتها تحرس الأرض. لكن ما أهمية ذلك إذا كان التيار قد اختلط بحلم آخر منذ وقت طويل، مصدره سماء ملوثة تتمتع بقوة مرعبة، كبيرة جدًّا، كما لو كانت قادرة على ابتلاع الكرة الأرضية وسحقها ببساطة.

صاني



لقد بنيت منزلًا لي ولـ»لونا»، في الفناء الخلفي لمنزل والديَّ. كان منفصلًا تمامًا عن منزلهما، وكان هذا أمرًا غير اعتيادي في ذلك الوقت. نمنا هناك، متحامين في هدوء التوقعات.

ذات صباح، وسط الهدوء، استقرت ظلال الماضي في داخلي، تظهر مثل الضيوف غير المدعوين. جلست على كتفي مثل شيطان صغير، واستقبلتني بقبلة زائفة. صرت أستيقظ في منزلنا الجديد على صوت العندليب المقدوني. وفي حالة نصف الوعي، تزحف أفكاري إلى غاباتنا القريبة، إلى «لونا»، التي كانت تداعب انتصابي، وتنظر إليَّ بعينين بدتا مليئتين بالعاطفة. ملأت الحلاوة عروقي، أغمضت عينيَّ وفتحتها مرة أخرى على حلم مختلف، بدلًا من «لونا»، كانت امرأة أخرى ذات ثدي مليء بالحليب تمسكني! شعرت بالدفء في خاصرتي. تغيَّر حلمي مجددًا، ورأيت ابتسامة «ماريان»..

الحامل. ومن العدم، ظهرت «جوان» أيضًا، واستلقت بجانب «ماريان» ومسَّدت على بطنها. وغرق أربعتنا في دوامة حلم سعيد.

أيقظتني «لونا» من الحلم.

- كنت تنادي امرأة في حلمك.. أنت تتعرق.. أنت مبلل.. دعني أحضر لك بعض الملابس الجديدة لتغير ملابسك.

وبينما كانت تحضر لي بعض الملابس، لاحظت أن جسدي ينبض بالحياة بسبب امرأة أخرى؛ جسدي الذي لم يرغب في الاستقرار، والذي، في ذلك اليوم، في ذلك الصباح، لم يرغب في «لونا»، وغرقت في الارتباك بسبب شهوة بعيدة المنال.

الراوي



يبدو أنه لا توجد أي روحٍ وفية في هذا العالم.. ويبدو أن الناس يتغيرون مثل الريح. يقولون شيئًا يومًا ما، ويناقضونه في اليوم التالي. لا يمكنك الاعتماد على أي شخص.

صاني



عندما همست لثدي «لونا» بلطف، وعندما تشاركنا أسرارنا مع بعضنا بعضًا، احمرَّت السماء خجلًا منَّا، وأخذت نفسًا أخيرًا قبل العاصفة، وأرسلت صاعقة من البرق ضربت منتصف الحقل دون أي اعتبار لما أصابته. فقط عندها فقدت اللمسة إحساسها بالجاذبية الأرضية، وفقدت القبلة قدرتها على التوقُّع. كان كل شيء على هذا النحو، تمامًا كما وصفته.. كان كل شيء على هذا النحو، ولكن فقط بينما كنت أهمس إلى جسدها عبر ثدييها. بقية الوقت، كانت أحلامي مليئة بـ»ماريان» و»جوان». كان ذلك الحلم البائس أشبه برسالة من بعيد تحثني، ولتذكرني بأنني لم أولد لاتباع الطريق المستقيم.

استمرت القصة كما لو كانت تتناثر في الجو كزهور الهندباء الرقيقة. وبعد وميض قصير، ذابت ابتسامتي الصغيرة.

تجرأت «لونا» على إثر تلك العاصفة، والحرية التي منحها لنا منزلنا الصغير، في الوقت الذي لم يرَ فيه رجالنا امرأة عارية من قبل ولا حتى زوجاتهم، لأنه ذلك كان عيبًا. في مثل ذلك الوقت، كانت «لونا» تناديني بصوتها الشبيه بالجنية في الصباح لتتعجب من ثدييها، لأنهما أصبحا أثقل من أي وقت مضى من الحليب الذي تنتجه.. «لونا» المسكينة بسيطة القلب..

أما بالنسبة إليَّ، مع مرور الوقت، ومع كبر بطنها، أصبحت يداي على خلاف مع بعضهما بعضًا، كما لو أن إحداهما تخص شخصًا آخر. تمتد إحدى يديها نحو ثدييها، نحو تلك الثمار الناضجة كأنها تراها أول مرة، وتتردد اليد الأخرى كما لو كانت تخص عقلًا آخر، كان الأمر كتذوق حلوى قديمة. يبدو أن «لونا» قد لاحظت «العلامات». سألت «لونا»:

- «صاني»، أأخطأتُ بحقك؟ أأهنت والدتك، أم أنني كنت وقحة مع والدك؟ عسى أن يصعقني البرق إذا فعلت ذلك. أنظرت بوقاحة إلى شخص ما؟ ستذوب عيناي إذا فعلت ذلك. ألا أنظف الفناء بشكل صحيح؟ ألا أحضِّر لك الطعام بالطريقة التي تحبها؟

لم أكن أعرف ماذا أقول لها.

في أحد الأيام، جلست إلى الطاولة وقدمت لي «لونا» اللحم المملح، من النوع الذي يخزَّن عدة أشهر في برميل في الخريف، والذي لا يسعك الانتظار لتجربته في الشتاء. يكون اللحم لذيذًا جدًّا في الأيام القليلة الأولى وحتى بعد مرور أشهر، لدرجة

أنك تنسى كيف تغلق فمك وتشعر بأنك تفعل ذلك أول مرة. لكن الربيع كان يقترب، وبحلول نهاية فصل الشتاء، تشتهي اللحوم الطازجة وتعجز عن التلذذ باللحم المملح المطاطي. في ذلك اليوم، رأيت «لونا» كلحم مملح، كورقة من أشجار العام الماضي، مثل المياه الراكدة، كعينات «الراكيا».. وألقيت بالكأس على الحائط.

***

الراوي



ببساطة، لم يستطع «صاني» تفسير ما حدث له في ذلك الوقت، ولم يدرك أنه يشعر بالملل، وأنه أصبح ألدَّ أعدائه.

***

لم يقتصر الخلاف على يدي «صاني» بل انضمت عيناه إلى الخلاف أيضًا، ونظراته. وفي النهاية انقسم عقله إلى نصفين. أول مرة، كانت هناك أيام لم يكن يشعر فيها بأي رغبة تجاه «لونا». كان يحدِّق إليها كلما ضمَّته بيديها، ولكنه لم يستجمع قوته؛ كان يقف متدليًا مثل شجرة ذابلة بدلًا من استجماع قوته حتى من الأرض. لقد تخلَّت عنه ابتسامته، وتلاشت.

لأكون صادقًا، في بعض الأحيان، كان يتعايش مع الوضع رضا بالأمر الواقع، لا لرغبته في ذلك. لا يعني ذلك أنه لم يكن يرغب في «لونا»؛ فقد استجابت رجولته لوجودها حتى من بعيد. لكن تفكيره قد

تغير، ويبدو أنه قد انفجر، وأصبح شخصًا مختلفًا.. وهذا مؤلم.

«صاني» مختلف الآن. يبدو أنه لا يستطيع السير في خط مستقيم في الحياة.

***

لم يعد ينظر إلى طريقهما المشترك في إطار وردي ملوث بالعار الذي لا يمكن محوه. أولًا، بدأت ابتسامة «لونا» تضايقه، تلك التي كان يتوق إليها عندما كان طفلًا. بدا الأمر كما لو كانت تضحك عندما يجب ولا يجب. هكذا كان يراها بعينيه الآن على الرغم من خلافهما.

بدأ يقول لها أشياء مثل: «أبعدي يديكِ الجو حار بالفعل» ويدفئ روحه بغطاء ثلجي. و»توقفي عن مداعبتي هكذا! كوني أكثر لطفًا» مناقضًا لما كان يقوله من قبل عن كونها الوحيدة التي تعرف كيف تداعبه بلطف كما تداعب الكستناء الأرض في الخريف. «لا تمضغي هكذا!» كان يقول لها هذا وهو يحدق في فمها. الفم ذاته الذي كان ينتظر منه أي كلمة عندما كان طفلًا. كان يتوق إلى سماع أي كلمة حلوة لتنمو أجنحته من السعادة. كان يقول لها: «قولي، قولي شيئًا»، وخشيت «لونا» الخجولة من التفوه بشيء غير مثير. فقدت «لونا» ثقتها بنفسها تدريجيًّا وكانت تفكِّر جيدًا قبل أن تتحدث، وقل كلامها كثيرًا.

- أيمكنني أن أتناول قطعة خبز؟

سألته على أمل أن يرد بكلمات من التي لا تفترض

نوع المصير الذي ينتظرهما. قال لها:

- لا.

بدا بطنها الحامل حزينًا بسبب تلك الـ»لا».

- تعالَ وتحسس الطفل وهو يركل في بطني، يبدو أنه ولد.

كان يقول لها:

- تأكدي أنه ولد!

- «صاني»، لا يمكنني رفع إبريق الماء. أيمكنك إحضاره إليَّ؟

هكذا كانت تسأله، ويجيبها:

- على الفور.

وتنتظره بصبر ليفي بكلمته «على الفور»، الصبر الذي تحوَّل لاحقًا إلى شعور بالوحدة. فكرت «لونا» المسكينة: «لقد سمعت أن المرأة الحامل مثل الكوليرا المتحولة، وأن أفكارها تتغير باستمرار، والفكرة تؤدي إلى فكرة أخرى، وأنها سترى أشياء لم تكن موجودة من الأساس. هذا ما يقوله كبار السن. لقد أصبت بهذه الكوليرا، يجب ألا يلاحظ «صاني» ذلك».

كانت تقول هذا لنفسها، وتتقمص بضع الابتسامات المزيفة. أصبحت مرحة وتافهة أكثر فأكثر.

***

الراوي



حتى فترة وجيزة، انحرف الوقت عن مساره، ومضى مسرعًا مثل العرق الذي ينزلق على بطن «لونا» مداعبًا إياها حتى انزلقت بذرة خارج رحمها كما ينبغي. وُلد «راي»، وصوته يهز الأرجاء، وعيناه تعكسان بريق الجو، وجسده يستشعر قرب شخص آخر. «راي»، الطفل الذي سمي كناية عن الشمس، بدأ الدورة الأبدية للفراق واللقاء.

بدت الأقدار، التي لا مفر منها، غاضبة تلك الليلة.

هذا ما قاله كل منهم:

- ينتظر هذا الطفل مصير مختلف. قد ينزلق عبره مثل السمكة، وقد تنمو له أجنحة. عندها فقط سيقرر أسيطير عاليًا أم سيغوص إلى الأسفل.

قال الثاني:

- في صيفه العشرين، سيأخذ متاعه على كتفه، ويذهب باحثًا عن الحقيقة. وعندما يصل إلى قمة

الجبل، سيحيله إلى حصى يُرى من خلالها.. ولننتظر ما سيراه عندها.

وقال الثالث:

- ليكتشف كل ألوان الطيف، ويجمعها، لعله يرى حتى دموع ملكة النحل. وليبحث أبعد وأعمق في ظل الحلم وفي المطر الملوث.

وقد كان، فقد زاره الثلج في الصيف والحر في الشتاء.. مثل كل المسافرين.

***

كان لـ»راي» رحلات عديدة في حياته؛ الأولى عندما غادر والده المنزل، حتى قبل أن يتعرف تنفسه، والثانية عندما غادر هو المنزل.

***

صاني



لا أستطيع أن أقول لها.. ماذا أقول لها؟ أنني لم أعد أرغب فيها؟ ستثير هذه الجملة ألف شكٍ في نفسها من شأنها أن تحطِّم «لونا» الهشة مثل غصن شجرة ربيعية جاف، بعد أن احترق في الشمس طوال الصيف، دون حماية. لا، لا يمكنني فعل ذلك. وعلى الرغم من أن صمتي يعتبر كذبًا، فلن أخبرها بالحقيقة. «الكذبة لن تؤذي أحدًا، ولكن الحقيقة مؤلمة» هكذا قلت لنفسي. احتقرت نفسي أكثر لأنني أصبحت أسوأ من والدي، وكل شخص آخر أعرفه! حتى إنني صرت أسهر في البارات لوقت متأخر.. مثل أبي تمامًا.

عندما عاد «ميتسي»، بدأت أتسكع معه، وبدلًا من العودة إلى المنزل في الوقت المحدد، كنا نشرب معًا، ونتبادل الحكايات عن وقتنا في أمريكا. لقد كاد يبكي من الحنين إلى روعة الحياة هناك، كما كان يبكي على مقدونيا عندما كان في أمريكا. وتفاخر أيضًا أنه جعل نساء أمريكا يرتجفن، وأنهن كن

يستملنه مثل القطط الصغيرة، مدركًا تمامًا أن كل من حوله يعرفون أن قدمه ترتجف من التوتر الذي يجرفه كما يجرف التيار الربيعي ورق الشجر. من ناحيتي، كنت أكتفي بسرد القصص التي

لا علاقة لها بأي امرأة على الإطلاق. أخبرت «ميتسي» أنه إذا فتح فمه، فسأخبر زوجته بكل شيء، وهكذا أبرأت نفسي.

أصبح «ميتسي» مرتبطًا بالضباط الصرب؛ بدأ يتحدث الصربية المكسورة، ويُنفق كل أموالهم على مشروباتهم في البار. وزوجته كالعادة تلعن اليوم الذي رأته فيه.

كان يقول لهم:

- أنتم.. أنتم.. كيف أقول ذلك، أنتم أمة. تهانينا لكم! ليبارك اللبن الذي شربتموه من أثداء أمهاتكم.

ويقولون له:

- اشترِ لنا دفعة مشروباتٍ أخرى يا «ميتسي». ستكون صربيًّا حقيقيًّا يومًا ما، وليس مثل هؤلاء الأشخاص الجهلة منكم.

كانت أسنان «ميتسي» ترتجف من الفرحة، لأنه سيصبح شيئًا في النهاية، وسيتوقف عن كونه نكرة.

- أوه «ميتسي» تخليت عن أمريكا الآن من أجل الصرب، أليس كذلك؟

لم يتوقف شعبنا عن مضايقته في البار.

- لا تتحدثوا كثيرًا! لطالما كنت كذلك، كيف أصف الأمر لكم؟ لقد شعرت دائمًا بأنني صربي في

صميمي. كان جدي صربيًّا، وأنا كذلك، وستصبحون كذلك أيضًا صدقوني كلكم؛ وجميع من يضحكون منِّي هنا. وإذا لم يحدث ذلك، سيحيلكم الضباط والشرطة العسكرية لحمًا مفرومًا.

قالوا لـ»ميتسي» المسكين ليضايقوه:

- أنت الآن تتحدث لهجة «الكومانوفو» الصربية يا «ميتسي». أنت شخص متعلم تتحدث جميع اللغات بالفعل يا «ميتسي».

- تابع.. استمر في الكلام.. سيحين وقتي، ويذهب وقتكم.

خلال تلك الفترة، ولأول مرة، سألتني «لونا» لماذا كنت أتحدث معه كثيرًا. ولأول مرة، ضربتها، وطلبت منها ألا تسأل أسئلة غير ضرورية.

***

صاني



ومع ذلك، عدت إلى ذاتي القديمة، عندما وُلد «راي». كل شيء كان جديدًا بالنسبة إليَّ. طفل يبكي، ولن يسمح لك بالنوم، هناك واجبات يجب فعلها، وبطريقة ما، نسيت كل شيء. لكن المد المنخفض يستمر فترة قصيرة في بحر متقلب. مع كل ثورة للشمس والقمر، يتقدم الماء نحو الشاطئ، ويندمج مع الأرض. وعليك أن تخرج من تلك الدورة اللانهائية لترى كيف أن الشمس التي كانت وراء هذه الظاهرة هي ذاتها التي خلقت أرضًا جافة، وصخورًا صلبة، وساعدت الأشجار، والعشب، وأي شيء آخر لينمو.

عندما أخبرني «ميتسي» أنه عائد إلى أمريكا، ازدهرت أفكاري مثل زهرة الصباح التي تداعبها الشمس. لكنني قلت «لا». وأغلقت أوراق الزهرة بالقوة. خيَّم الظلام عليها على الفور لتنام بتلاتها وكأن شيئًا لم يحدث.. ولكن دون جدوى. على

الزهرة أن ترى الشمس مرة واحدة لتحلم بها، وتريد أن تتفتح أكثر من أي شيء آخر. وإذا لزم الأمر، فإنها ستخرج الشمس من تحت الأرض، فقط لجذب الأشعة الحقيقية نحوها بقوة كاملة. مثلي تمامًا؛ أجلس وأنتظر وأبتهج.

سأقولها مرة أخرى، ليس الأمر أنني بائس؛ فقد كنت رجلًا سعيدًا، ولكن في الوقت نفسه كنت غير سعيد حقًّا. عندما بلغ ابني سن الثانية، زاد العطش داخلي مثل الربيع بعد هطول أمطار غزيرة،

وأعتقد أنه سحق كل الحجارة الملقاة حتى تلك التي لم تبتل منذ زمن بعيد.

حلمت، وأنا أتخيل محبوبتي المتفردة الحكيمة «لونا»، بحماسة. كانت تنظر إلى عيني، وتتحدث إليَّ كما أفعل وأخبرتني بكل التفاصيل التي أردت أن أسمعها، لكن لن يتم نطقها أبدًا؛ لأنه ببساطة لا أحد يفكر بهذه الطريقة، لأنه ليس عليهم التفكير بهذه الطريقة. ولكن مجددًا، ربما ينبغي لهم ذلك، لكن لا يوجد أحد في العالم لديه القوة ليفعل ما أردت فعله.

حلمت، تخيلت «لونا» بحماسة وهي تخبرني بكل ما أردت أن أسمعه، وتحررني من كل شيء حتى أتمكن من العودة بحرية، لأنني كنت في حاجة إلى أن أتحرر لأكون حرًّا. في الحلم، كانت تنطق برغبتي وتنظر إليَّ بنظرة حازمة وتقول:

- اذهب، إذا كان هذا ما عليك فعله. افعل ما تراه ضروريًّا لإسقاط ذلك الجدار المشيَّد حول قلبك.

اهرب بعيدًا عن نفسك، اركض بسرعة مثل السحب، لكن راقب طريقك لكيلا تتعثر على أرض مستوية، ولا تتخلَّ عن نفسك. هناك، حاول أن تُشفى وتتعافى مما عشته ومما يشغل تفكيرك ليلًا، ومن حقيقة أن لمسة ثديي تريحك حقًّا، ومن كل ما ألقى بظلاله على عينيك وسرق اللمعان الذي كان يتوق إليَّ. لست مهتمةً بما كان أو ما سيكون.. أعلم أنك ستعود.. وتبقى إلى الأبد. وهذا كافٍ بالنسبة إليَّ. لا أطلب منك أن تصرخ داعيًا القمر في وقت متأخر لاستعادة ما كان، لأن ما كان لا يمكن أن يكون مرة أخرى، وعلينا أن نستحق مصائرنا من خلال مساعدة بعضنا بعضًا. لقد سحبت هذه البطاقة ولا أخشى الخسارة في هذه اللعبة. ما أخشاه أكثر هو خسارتك إلى الأبد إذا لم أتركك تذهب. أنت مثل الذئب؛ إذا قيَّدته، فسوف يعض قدمه ليهرب.. لا تأكل روحك. اذهب إذا كان عليك أن تذهب، لكن عد.. عد.. لا تسألني إذا كنت قد عرفت شيئًا من أحدهم، فأنا لم أسمع شيئًا من أحد. أنا أستجيب للبريق الذي في عينك ولكن ضوءها انطفأ. أنت نار مشتعلة وماء عذب عليك أن تحترق وتسبح. وأنا أعلم أن الإنسان لم يولد ليحمل عبء مثل هذه التناقضات داخله، ولهذا السبب أقول لك: «اذهب». إما أن تطفئ النار، أو تحرر الماء، أو توحدهما بطريقة سحرية ما، وإذا أمكنك فعل ذلك في وقت ما وفي مكان ما.. سأكون هنا من أجلك.. دائمًا. كنت هنا أيضًا خلال ربيعنا القصير، وعندما أظلم صيفنا فجأة وأصبح شتاءً. سأكون هنا وسأنتظرك، جالسةً

فوق أوراق الخريف، وكتلة ثلج في قلبي ودموع الربيع تنهمر من عيني، وقد احمرتا من البكاء، ولكن هذا ليس مهمًّا. أنا سعيدة بصرف النظر عن موقفي، حتى إذا كنت سأموت من الحزن، فأنا أسعد من أي شخص آخر أعرفه، وذلك ببساطة لأنه وعلى الرغم من قصر وقتنا معًا والذي من شأنه أن يقتل حتى أضخم رجل، وأنا لست رجلًا ضخمًا، فأنا سعيدة لأنني التقيتك. لم أخدع نفسي قط بالتفكير بأن كل شيء سيبقى على حاله.. لقد شعرت بذلك منذ زمن طويل، منذ أن رغبت بشدة في أن أمسِّد على منابت لحيتك، والتي بدت لي بعيدة المنال في ذلك الوقت، أبعد حتى من الشمس. لكنني تعرفتها عند عودتك، عندما رأيت ظل لحيتك كما في أول مرة. لقد فعلت لي شيئًا لم يفعله أحد من قبل. لقد جعلتني أشعر بأنني المرأة الوحيدة على وجه الأرض، ويجب أن أجعلك تشعر بأنك الرجل الوحيد أيضًا. أعلم أنني جعلتك تشعر أنك شخص مميز، ولكن النجمة التي ولدت في ظلها جعلتني راغبة في العطاء أكثر من التلقي. سيكون ابنك مثلك تمامًا، ويجعلني ذلك أكثر سعادة بالفعل. آمل أن يجعل امرأة أخرى، لم تطأ قدمها على سلم الشك بعد، تشعر كما لو أنها واحدة من قلة مختارة في هذا العالم الواسع بأكمله، وأن تشعر بما شعرت به وعشته أنا معك. أدعو الرب أن تفعل الشيء ذاته من أجله في المقابل، لأنه إذا لم يدرك الشخص تميزه، حتى إذا كان مميزًا بالفعل، فإنه يظل تعيسًا، ويمضي في الحياة مثل دمية بالية. أنت شخص جيد، إذا كان ما تحاول فعله

يتعارض مع معتقداتك، فلا تتابع في ذلك الطريق. أنت مقاتل في معركة مستمرة، ولا يمكنك الانتصار أبدًا، لا بد أن هذا صعب للغاية. لا أريد أن أراك تكافح حتى يكل سلاحك وتضطر إلى رميه بعيدًا مثل قطعة من الخردة، لأن الرجل ليس رجلًا بلا سلاحه. أحبك يا جندي العزيز رغم تعدد الجبهات وأنت وحدك هناك. لا أريد أن أحكم عليك بخوض معركة خاسرة، حتى لو كانت هي الطريقة الوحيدة للتشبث بك.. لست في حاجة إلى محارب مهزوم. أعلم أن المقاتل يظل متمسكًا بشرارته حتى تنضب تمامًا، وحتى يربح المعركة بجروح كثيرة. لا أريد أن أراك كجبل يعج بالحياة من ناحية، ومن ناحية أخرى على الجانب المظلل، تكافح بعض الطحالب النادرة لتبقى على قيد الحياة. تقع تحدياتك بعيدًا عن هنا، طريقي سلس، وطريقك وعر. إذا أردنا أن نسير معًا، يجب أن تبقى مصائرنا كما هي عليها الآن؛ منفصلة، ولكن قريبة من بعضها بعضًا، جنبًا إلى جنب، حتى نتمكن من التواصل مع بعضنا بعضًا من بعيد، والتقاط رائحة بعضنا بعضًا عن قرب. لا

ينبغي لأحد أن يسحب الآخر إلى طريقه، لأن النتيجة ستكون شخصًا مماثلًا لهما تمامًا، ويصبحان شخصًا واحدًا، نكرة كما علمونا في المدرسة. لهذا السبب، اذهب وأبقني و»راي» معك في أفكارك.. اذهب، واحملنا داخلك. على أي حال، سوف ننتظرك. لا تتأخر. فكل عام تمضيه بعيدًا عنَّا ينقص من حياتك، وليس لديك أكثر من حياة، لا أحد في هذا العالم مبارك لهذه الدرجة. أريدك أن

تتذكر أنني أقرأ ما بين السطور وأعرف ما يدور في ذهنك وأنت تكتب، أعرف أين تتعثر كلماتك وأين لا تتعثر، فكلماتك مترددة ولكنها صحيحة. تزعجني كثيرًا حقيقة أن كلماتك لا تعبِّر عن الحقيقة بأكملها. أعلم أنه ليس من الصواب أن يفكِّر الشخص بهذه الطريقة، لكن النجمة التي ولدت في ظلها جعلتني مقبلة على العطاء أكثر من التسلم. بالنسبة إلى البعض هذه لعنة، بالنسبة إليَّ ليست كذلك. تذكر، قد يسيطر عليك الخوف ولكن هذه ليست علامة على أنك خسرت المعركة. لديك فائض من القوة داخلك، أنت تحمل قوة الذكور كلهم داخلك، ولكنك عاجز عن البقاء في مسار واحد. لا تقلق، لم أشك فيك أو في نفسي من قبل، ولا حتى لحظة واحدة. لم أشك أبدًا في أننا لن نفعل كل ما كان علينا فعله. أنا وأنت رمز الخلود، شجرة تقف شامخة في منتصف الطريق، لأنها تظن أن هذا هو واجبها. لا تتجاهل الأمر، أنا أمنحك حريتك، تلك التي يمكنك أن تأخذها بنفسك، ولكن عندها لن تكون حرًّا. ومع ذلك، فإن الحرية الممنوحة لك هي تلبية لرغبتك الخاصة، وأنا أمنحك إياها لأن النجمة التي ولدت في ظلها جعلتني محبة للعطاء. اذهب وعد.. صحيح أن عيني التي كانت الأكثر حيوية في نظرك لم تعد كذلك، نعم، هذه نتيجة غيابك ولكنه ليس السبب الوحيد. تذكَّر أن مرور الوقت أحد أسباب تكون التجاعيد، لكنها تجعلك أكثر وسامة، والشعر الرمادي السابق لأوانه في رأسك ولحيتك هو هدية من الآلهة لتزيدك حكمة ورجولة، ولتجعلك تبدو صارمًا وواثقًا،

على الرغم من أنك في الواقع تحتاج إلى المساعدة والدعم. لن تخسر معاركك قبل الخوض فيها، لمجرد أنك شخص جيد. لأن هذا هو ما يميزك بشكل لا يقاوم، وهي صفة أنا متأكدة من أنك ستتمسك بها طوال حياتك، لهذا سأتركك تذهب بقلب هادئ. لا يعني ذلك أنه لن يكون هناك أي ظلال أخرى تسقط على عيني، لا يعني ذلك أنني لن أتوقف عن البحث عنك في الظلام، في

السرير كل ليلة وأنا ممسكة بزاوية البطانية بكلتا يديَّ. ولا يعني ذلك أنني لن أحدق إلى الأفق المظلم، ويغمرني ذلك الشعور اللعين المألوف بالسعادة الممزوجة بالحزن، بسبب اعتقادي أنني سأبقى معك إلى الأبد، ولكنني لن أحظى بك في ثورات الشمس والقمر المستقبلية التي لا تعد ولا تحصى. صحيح أنني سأشعر بالشفقة والحزن تجاهك، وسيبدو منزلنا مثل حقلٍ مغطى بالثلوج والدموع الصامتة. وسأشعر بالخوف، رغم أنني سأنفي ذلك. سأرتجف من الخوف من دونك، على الرغم من أنني متأكدة أنك ستعود.. أنك ستعود وتبقى إلى الأبد. فقطرة المطر دائمًا ما تكون متأكدة أنها ستستقر في السحابة طوال حياتها، لكن السحابة تبكي يومًا ما، وتنطلق القطرة لتنضم إلى المحيطات العظمى، ومسار عودتها عبر الجبال إلى الغيوم مرة أخرى يبدو طويلًا جدًّا يكاد يكون بلا نهاية، ولكنه المسار نفسه الذي يسلكه الزوج والزوجة.. وينتهي بهما الحال معًا.. دائمًا؛ السحابة والقطرة، الزوج والزوجة فقط إذا أرادوا ذلك بشدة. أنت وأنا، لا يزال أمامنا الكثير، وحتى نمضي قدمًا

معًا، يجب أن تطير وتفرد أجنحتك وتحرر نفسك من الرغبة الملحة في الطيران، والتي أعرف أنها ستكون دائمًا ملازمةً لك. لأنك تنتمي بين السحاب، وتعرف دائمًا كيف تطير، وتخاف أحيانًا من الطيران وتفضِّل البقاء على الأرض، ولهذا أحبك. أنا أحبك وأحب كل هذه الأشياء بك، أحبك عندما تتظاهر بالقوة وعندما تكون قويًّا حقًّا. لقد أتحت لي الفرصة لأرى الشخص الذي أحبه بحق على طبيعته، وليس كما أعتقد أنه يجب أن يكون. وبسبب ذلك، في هذه الحياة، أنت لست مضطرًا إلى التعامل مع أي شعورٍ بالنقص، ذلك الذي يجعل حياة الناس بائسة وتعيسة، فكل ذلك نتيجة لظنهم أنهم عاجزون عن الحصول على ما كان لديهم من قبل، ولا يدركون أنه سيظل ملكهم إذا سمحوا له أن يكون كما كان. لقد منحتني الحرية لأكتشف ذلك، وللاحتفاظ بتلك البصيرة بداخلي، والتي تدفئني كـ»راي» وهو نائم في حضني، ونتنفس بالإيقاع ذاته، إيقاع واحد، وليس اثنين. اذهب، لكن قبّلني أولًا كملك وجاريته، مثل الرجل وعشيقته، كزوج وزوجته. قبلني كما تفعل عادةً الآن في هذه اللحظة، لأن قبلاتك لن تعود كما كانت بمجرد مغادرتك، لن تعود كما كانت بعد الآن. أنا لست من النوع الذي تصالح مع النقص بداخله، أو الذي يبحث عن طريقة لتبرير تعاسته. لا. أنا

امرأة تدرك جيدًا أن المياه المندفعة تزيل الأشجار ضحلة الجذور، ولهذا السبب أنا لا أسمح لأغصاني أن تلمس الأرض. بدلًا من ذلك، تركت أوراقي تتساقط، بعضها يسقط في الخريف مثل

نهاية أغنية، والبعض الآخر تنزعه الرياح العاتية بقوة. وتناثرت أوراقي قبل أواني، قبل أن يسمعوا العصافير وهي تغني وتتغزل بمن تحب. لذا أقول لك مجددًا، لا تخف من الأمواج، إنها عالية فقط على ضئيلي الحجم، وأنت طويل وضئيل في آن واحد. عندما تكون صغيرًا فأنت لا تفقد عنادك أبدًا، لأنك تعرف المسارات السرية لكل من النحل والدبابير. ستتركنا شبلًا، وتعود لنا أسدًا. أنا متأكدة من أنك ستعود، ستنحرف عن مسارك وتعود إلينا. وستكون الحلقة المفرغة التي ستدور فيها إلى ما لا نهاية في انتظارك، في السراء والضراء، وقت الضحك والبكاء. وفي أثناء وجودنا هنا، سنرى كل شيء ونسأل عن كل شيء، فقط أنت وأنا. وسنختم مغامراتنا باكتساب مناعة من كل مشقة، وأنا متأكدة من هذا، لأن هذا الامتياز يتم منحه لقلة قليلة، امتياز تحدثت عنه الكلمة الأولى. انتظر، دعني أنظر إلى وجهك، دعني أتذكر كل جزء من جسمك، دعني ألمسك في جميع الأماكن التي أعرفها كما أعرف نفسي، دعني أتذكر شعرك الذي يمكنني تسمية كل خصلة فيه، كأن كل جزء منك خرج من رحمي. هذا هو مدى معرفتي بك جيدًا، ولهذا أفتقدك كثيرًا عندما تغادر، وكيف تبقى بداخلي وأنت غائب عني.

هذا ما أردت أن تقوله لي «لونا»، لكي يتدفق كل من العسل والحليب في روحي، لكن «لونا» عاجزة عن التفكير بهذا المستوى، أو حتى تخيل شيء كهذا ولا تعرف مثل هذه الكلمات..

«لونا» المسكينة، لقد أحبت، هذا ما هي عليه؛ بسيطة في حبها، ومخلصة في إظهار حبها. باختصار، مثالية، على الأقل بالنسبة إليَّ. إنه لأمر مؤسف أنها قابلتني أنا؛ عديم الفائدة، الفاشل، الذي أعطته كل شيء ولم يكن كافيًا بالنسبة إليه.

يا لي من مسكين!

راي



لقد نشأت وحدي، لم أكن وحيدًا تمامًا، ولكن دون أب. وفي سن الثامنة عشر، في نهاية عام ١٩٤٤، ذهبت إلى القتال مع الثوار. لم يكن هناك من يمنعني من الذهاب. حسنًا، هذا ليس صحيحًا تمامًا؛ قالت لي أمي، «لونا»، ألا أذهب، وكادت تمزق شعرها لتمنعني، إذا جاز التعبير. ولكن لم يكن هناك ما يمنعني من الذهاب. لا أعرف حتى لماذا ذهبت معهم.. لقد اتبعت الأوامر، وفعلت ما قيل لي. كنت مطيعًا، على عكس ما كنت عليه في المنزل، حيث إنني نادرًا ما أطعت أحدًا.. انتهت الحرب.. انتهت بسرعة، ولم أصب بأي خدش، لكنني حملت بضع رسائل عبر الجبهة الأمامية، ويبدو أنها رسائل مهمة. هكذا ودون أي خدش، أعطوني ميدالية.

يمكنك القول إنهم أعطوني ميدالية دون سبب. مات الكثير من الرجال في الجبهة.. يا إلهي رأى الكثيرون أصدقاءهم بلا أذرع، بلا عيون، بلا أرجل، وأمعاءهم متدلية خارج أجسادهم، والتعبيرات

المتشنجة على وجوههم دليل أنه لم يبقَ لهم سوى ثوانٍ في هذا العالم. وكم منهم.. كم عدد الذين بقوا على قيد الحياة بلا ذراعين، بلا عيون، بلا أرجل؟ لم يحصل معظمهم على أي شيء على الإطلاق. كل ما حصلوا عليه هو الأحلام التي تطاردهم وهم نيام. أحلامهم التي جعلتهم يتبولون مثل الأطفال، وهم مستلقون في السرير مع النساء، اللاتي، وبطبيعة الحال، لا يردن رجلاً ضعيفًا.

كان هذا هو حظي، كانت البلاد في حاجة إلى أبطال شباب يافعين، ووجدوني. لا أعرف كيف وجدوني، لكنهم فعلوا ذلك، وعدت بميدالية إلى أمي. بكت المسكينة من الفرح.. لقد بكت من الفرح كما لم أرها من قبل.

في عام ١٩٥٠ أرسلوني إلى جامعة «زغرب»، حتى أتمكن من العودة إلى الوطن، إلى مقدونيا، لخدمة البلاد. لم أكن مهتمًّا بصالح البلد أو الجامعة منذ أول يوم لي هناك. قال لي المعلمون: «أنت بطل، لذا عليك أن تدرس كخمسة رجال مجتمعين»، وقلت لنفسي، إذا كان الأمر كله يتعلق بالميدالية، لتدرس الميدالية وتتعلم إذا كان ذلك مهمًّا حقًّا. رسبت وأعدت فصلًا بعد فصل في الجامعة، وكتبت أوراقًا وأوراقًا من المعادلات. كانت إقامتي في الجامعة طويلة جدًّا بما يكفي لقضاء شبابي كله في الشرب، لأفني شبابي كله في الشرب.

هناك قابلت «نينا». لكن ربما كان من الأفضل ألا ألتقي بها، أو بعد التفكير، أظن أن لقاءها لم يحدث فرقًا. لأن النهاية واحدة في جميع الأحوال، كما هي

البداية، في حين أن الوسط يعتمد «جزئيًّا» على الظروف.. ولكن قبل كل شيء يعتمد على الشخص. سواء كان الشخص سيلتقي به سيسعده أم لا الأمر سيان. وماذا يمكن للمرء أن يفعل في مثل هذا العالم؟ كل ما تبقى هو الشرب.

ليس هناك شيء آخر، لم تؤمن «نينا» بأي شيء أيضًا. لا الرب ولا الحزب ولا السلطة. لم تؤمن حتى بنفسها. لم تؤمن بأي شيء. ربما لهذا السبب كانت الأمور أسهل بالنسبة إليها. أسهل بكثير عندما يتعلَّق الأمر بالحصول على كل ما تريد.. «كل ما تريد». كل ما كانت تتخيله. بالإضافة إلى أنها كانت جميلة بالطبع. وحللت أنا مكانة خاصة في خانة «كل ما تريد».. لا يعني ذلك أنني حانق بالطبع. لولا ذلك لكان مصيري مختلفًا.

كانت «نينا» تظهر في سكني عندما تكون مكتئبة، عندما يصل الخواء بداخلها إلى مرحلة تصبح فيها عاجزة عن تحمله. كانت تخبرني أنني كنت جيدًا جدًّا، وأنني كنت الشخص «الحقيقي» الوحيد الذي تعرفه.. بعد ذلك كانت تهرب.. كانت ستهرب.. ستغادر. بعد ذلك، كانت تنطلق في طريقها

الخاص لتعود بعدها إلى سكني مرة أخرى، وكنت دائمًا هنا. ليس لأنني كنت في انتظارها؛ فلم أكن أنتظر أحدًا، ولم أشعر بالحاجة إلى انتظار أي شخص. فقط كنت هناك. لم أستطع حتى التخلص منها عندما تحضر. وقد شعرت بالتزام تجاهها في المناسبات النادرة التي كانت تظهر فيها وكأنها غارقة في أمطار الربيع،

مع عشرات الندبات المرئية.

وبهذه الطريقة مرت سنوات الدراسة في الجامعة. ولكي أبقى في «زغرب» - ليس بسبب «نينا» - التحقت بجامعة مختلفة. أنا بطل، ولديَّ ميدالية، عليهم أن يقبلوني، وأن يقدموا لي منحة دراسية أيضًا. عندها لن أضطر إلى العمل وأتفرغ للشرب. سأفني شبابي في الشرب، فهو سيمر بطريقة أو بأخرى.

كانت الستينيات تقترب. أحببنا أنا و»نينا» الشرب في البارات المحلية. ومن بعيد، أشعلت أصوات الحرية الرياح القادمة من الغرب، ذلك التحرر الذي سيثبت لاحقًا أنه منافق مثل واقعنا الاجتماعي. لكن مهما فعلت، دون استثناء، ستجد نفسك دائمًا أمام خيارين أحلاهما مر، عليك دائمًا الاختيار بين شرين بلا استثناء. لذلك اخترنا الشر الآخر، الجديد. هناك، في إحدى البارات، وسط غشاوة من السكر، ظهر رجل ذو لحية وشعر طويل، يرتدي قبعة رعاة البقر. كان يتحدث دائمًا كما لو كان فيلسوفًا. تحدث هذا الرجل عن الأشياء المكتسبة. قال إنه من هذه الأنحاء، ولكنه لم يولد في أي مكان، أو هكذا شعر. كان يتحدَّث المقدونية أيضًا، لكنه كان رجلًا بلا جذور، ونحن، الذين لم نفعل شيئًا سوى التعثر في جذورنا، استمعنا له، لأنه لم يكن مثل الآخرين. كما كنت أقول، قال الرجل الذي يرتدي قبعة رعاة البقر إن كل رجل يجب أن يبحث في هذه الحياة، وعليه أن يسعى ليدرك أنه لن يجد أي شيء أبدًا.

ولكن إذا لم يتعلم من خلال التجربة سعيه بلا فائدة، فهو لا شيء. لأن البحث عن الـ»لا شيء» يحوِّل كل ما هو «لا شيء» إلى «شيء»، ولكن هذا فقط لأنك تبحث عنه. قال إن هناك شيئًا واحدًا فقط عجز عن اكتشافه: «ما الأسوأ؟ خيانة الذات أم خيانة الآخرين؟». هذا ما قاله، واستمعنا

له كمعلم تعلم كل شيء في الحياة، ورأينا رجلًا حقيقيًّا نادرًا، وكنا شاكرين له، لأنه منحنا القوة لنشعر كما لو أننا لم نكن وحدنا في هذا العالم.

كان مريبًا في البداية؛ رجل ضئيل يبلغ من العمر نحو ستين عامًا، وحيدًا، ويختلط بنا نحن الشباب. لكنه دفع ثمن مشروباتنا، لذلك تحملته. لقد أزعجني الشبه الذي بيننا كثيرًا؛ كان لدينا الأنف ذاته، وكان ذكيًّا جدًّا.. وأيضًا لأن «نينا» كانت تنظر إليه كما تنظر إليَّ. بعد فترة، توقف عن مضايقتي، وزال اهتمامي به. وسرعان ما لم يكن لديه شيء جديد ليخبرنا به. قال إنه عندما يبحث الشخص عن الـ»لا شيء»، عليه فقط أن يحرص على عدم إيذاء أولئك الذين لا يبحثون عن «شيء»، ولكنهم يجدون أنفسهم في المسار ذاته. بدا ذلك مضحكًا بالنسبة إليَّ؛ كيف يمكن للشخص الذي وصل إلى هذه النقطة أن يتساوى بشخص لا يسعى؟

ذات يوم، وفي إحدى الليالي على وجه الدقة، بعد شرب عشرات المشروبات على حسابه، عندما أصبحت عاجزًا عن تعرُّفه، جاء، واقترب مني، وقال:

- أنا ذاهب الآن. أنا راحل. لقد أفنيت السنوات

القليلة الماضية لكي تصبح قادرًا على.. أوه، لا يهم. لا شيء يهم.

وأراد أن يعانقني، لكنني دفعته بعيدًا. أردت أن أدعس هذا ذلك الشيخ المسكين، وأضربه، وأن أجعل دمه ينزف على الأرض، وأن أدعس وجهه، وأمسح الابتسامة التي لم أرها حتى من على وجهه، حتى تختفي تمامًا، كما لم تظهر على وجهي من قبل. وبعد ذلك سيخلصونه من يدي، ولكنني سأنقضُّ عليه مرة أخرى وأقضي عليه، حتى يبصق دمًا أسود. هذا ما أردت فعله، لكنني دفعته دفعة واحدة، وتركته يغادر، لأن ذلك لا يهم، لأنه لا شيء مهم بقدر أهمية كل شيء..

***